

دعوة الحق
سلسلة شهرية
تصدر مع مطلع كل شهر عربي



الدكتور حسن باجودة


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء بالهدى ودين الحق وأرسى دعائم العلم ونصح أمته للتمسك بالكتاب والسنة صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبعد :ــ

فهذه سلسلة (دعوة الحق) فى أول نتاجها الثقافى نضعها بين يدى القارىء الكريم ·· دعوة خير ، وأمل أمة ، ومجال نهضة ثقافية أصيلة ·· وقد قامت رابطة العـــالم الاسلامى بمكة المكرمة باعداد هذه السلسلة مع مطلع هذا القرن الهجرى الجديد لتســـهم بما تستطيع فى تكوين مكتبة لكل قارىء مســـلم ينشـــد الحقيقة ويسعى للأصالة ويحافظ على التراث ، وهى بعد كل هذا جهد المقل·

نسأل الله سبحانه أن يضعها فى مكانها اللائق بها ، داعية الى وحدة هذه الامة الفكرية والثقافية ، ولقد بدأنا بهذا الكتاب (تأملات فى سورة الفاتحة) لان الفاتحة هى أم الكتـــاب ألحت على أسس مبادىء الدعوة الاسلامية ، وانها دعوة خير وحق للناس كافة ·

ويطيب لى أن أقدم الشكر لكل من أسهم فى هذه السلسلة بجهده العلمى والفكرى والتى ستصدر تباعا ان شاء الله تعالى مع مطلع كل شهر عربى ، كما لا يفوتنى هنا أن أشكر الاخ الدكتور عبدالصبور مرزوق المدير العام للرابطة والاخوة معه الذين تحمسوا لهذه الفكرة وتبنوها وأظهروها الى حيز الوجود ·

والله أسأل دوام السداد والتوفيق ·

الامين العــام

محمد على الحركان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بعون من الله تعالى وتوفيق ، سبق لنا أن قمنا بدراسات متأمّلة للسّور التالية على التوالي : سورة يوسف ، سورة مريم ، سورة يس ، سورة الإسراء ، سورة الفرقان ، سورة العاديات ، سورة النّازعات ، سورة الحــاقة ، سورة الرّعد ، سورة محمّد ، عليه السلام ، وها نحن أولاء ، نستعين الله تعالى على دراسة سورة الفاتحة الكريمة دراسة متأمّلة ، وكان اختيار هذه السورة استجابة لرغبتين :

الأولى : الإحساس بأن المنهج الأمثل لهذه التّأملات أن تبدأ من أوّل المصحف الشريف ، وأن تتناول السّور بالتّرتيب ، والله تعالى وحده هو الذي يعلم خط سير هذه التأملات مستقبلا ، فنحن مثلاً نتبين هذه الأيام أنّا بحاجة لأن نعالج قضايا بعينها ، ترتبط بهذه السّورة الكريمة أو تلك وتكون تلك المعالجة ، أحد الدوافع لدراسة تلك السّورة التي قد لا تكون في التّرتيب ، السّورة التي ينبغي دراستها فيما لوسارت الدراسة وفق التّرتيب التوقيفيّ لسور المصحف الشريف .

الثانية : الرغبة الصادقة المخلصة من فريق من الإخوان الأفاضل في أن تبدأ هذه الدراسات المتأملة بسورة الفاتحة الكريمة ، وأن يراعي مستقبلاً ترتيب السور الكريمة .

وبشأن هذه السورة الكريمة ، قد راعت التأملات مجموعة من الأمور أهمّها ثلاثة :

الأمر الأول : الأحكام التي ارتبطت بهذه السورة الكريمة . وقد كان موقفنا من هذه الأحكام مجرد الاقتباس من المصادر الموثوقة ، وكان اعتمادنا كبيراً على تفسير القرطبي رحمه الله تعالى « الجامع لأحكام القرآن »

الأمر الثاني : مظاهر الإعجاز البلاغيّ في السورة الكريمة . وكانت عنايتنا كبيرة ، كعادتنا ، بمحاولات تبين أوجه الرّباط ، الواضحة والخفية بين كلمات الآيات الواحدة ، وآيات السورة الكريمة .

الأمر الثالث : الدّروس التي يمكن استفادتها من هذه السورة الكريمة التي اعتبرها فريقٌ من العلماء سرّ القرآن الكريم ، لأنّ القرآن الكريم كتاب هداية أولاً وآخراً . وقد قال تعالى في سورة الإسراء : « إنّ هذا القرآن يهدي للتي هى أقوم ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً ، وأنّ الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

وبشأن هذه الدراسة المتواضعة لسورة الفاتحة الكريمة ، أكرّر ما سبق أن قلت بشأن كل دراساتي القرآنية ، بأني أشهد الله تعالى الذي لا إله غيره ، بأني لم أشأ لحظة من اللحظات أن أحملّ حرفاً واحداً من القرآن الكريم ما لا يحتمل . ومن كانت له أيّةُ ملاحظة على هذه الدراسة وكلّ دراسة فلا يتردّد في إبدائها فالحقّ أحقّ أن يتّبع .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبّل منّا صالح الأعمال . وأن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل . وأن ينير لنا الطريق . وأن يعفو عمّا بدر منّا من تقصير ، وألاّ يحرمنا من أجر إنه سميع مجيب « سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلامٌ علي المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد النبيّ الأميّ الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

والحمد لله ربّ العالمين .

كتبه الفقير الى عفو ربه

د.حسن محمد باجودة

توطئة

بين يدي دراستنا المتأملة لسورة الفاتحة الكريمة ، نودّ أن ندوّن بعض المسائل ذوات العلاقة بها . وهي على النّحو التّالي :

أولا : بتدبّر الروايات المختلفة بشأن نزول السورة الكريمة وكونها من المكّيّ من القرآن ، الذي نزل قبل الهجرة ، أو من المدنيّ الذي نزل بعد الهجرة ، رجح لدينا رأي جمهور العلماء الذي يذهب إلى كون السورة الكريمة من المكيّ من القرآن ، والمعروف أن ثمة آراء مختلفةً للعلماء في هذه المسألة إضافةً إلى الرأي الذي رجّحنا . فمن العلماء من ذهب إلى كون السورة الكريمة مدنيّة . ومنهم من قال بتعدّد النزول ، بمعنى أنها نزلت مرّة بمكّة ، ومرة أخرى بالمدينة (١) على أن منهم من قال : نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة (٢) .

ومن المفسرين الذين تكلموا في المسألة بإسهاب أبو حيّان في البحر المحيط (٣) الذي يقول : « قال عليّ ، وابن عبّاس ، وعليّ بن الحسين ، وقتادة ، وأبو العالية ، وابن جبير ، ومحمد بن يحيى بن حبّان ، وجعفر الصّادق : الفاتحة مكيّة ، وأضاف إلى ذلك (٤) : « وقال أبو هريرة ،

---

(١) انظر هنا مثلا تفسير ابن كثير ٨/١ والكشاف ٢٠/١ .
(٢) انظر تفسير القرطبى ص ١٠٠ .
(٣) ١٦/١ .
(٤) ١٦/١ .

وعطاء بن يسار ، ومجاهد ، وسواد بن زياد ، والزّهريّ ، وعبد الله بن عبيد ابن عمير ، هي مدنيّة . وقيل إنها مكّية مدنيّة » .

أمّا حجّة جمهور العلماء في كون السورة الكريمة من المكّيّ من القرآن ، فهي أن الإشارة إليها قد جاءت في سورة الحجر ، وذلك في قوله تعالى(١) : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » والحجر مكّية بإجماع العلماء. ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفِظ أنه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير الحمد لله ربّ العالمين (٢) وقد بيّن أبو الأعلى المودوديّ في تفهيم القرآن (٣) أن الفاتحة منْ بين أولِ ما أنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام . وتخبرنا الأحاديث الصحيحة أنها أول سورة كاملة نزلت على النبيّ . وكانت قد نزلت عليه من قبل آيات شتات ، هنّ أجزاء من سورة العلق ، والمزمّل ، والمدّثر . وبهذا يتبيّن أن سورة الفاتحة أول سورة نزلت كاملة على المصطفى صلى الله عليه وسلم بصفة عامة ، فهي إذن من المكّيّ من القرآن . والله تعالى أعلم .

ثانياً : عدد حروف السورة الكريمة مائةٌ وثلاثة عشر حرفاً (٤) .

ثالثاً : عدد كلمات السورة الكريمة خمسٌ وعشرون كلمة (٥) .

رابعاً : لا خلاف بين الجميع من القراء والعلماء أن سورة الفاتحـــة

---

(١) سورة الحجر ٨٧ .
(٢) انظر هنا تفسير القرطبى ص ١٠٠ والبحـــر المحيط ١/١٦ وكذلك رسالتان فى التفســـير وســـورة الفاتحة لحسن البنا ص ٤٣ وابن كثير ١/٨ .
(٣) ص ٣٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ١/٨ وتفسير القرطبى ص ٩٦ .

تتكون من سبع آيات (١) إنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات . لقد عدّ المكيّون والكوفيّون (٢) وجماعة من الصحابة والتابعين وخلقٌ من الخلف (٣) بسم الله الرحمن الرحيم آية . ولم يعدّوا أنعمت عليهم آية (٤) وقال آخرون : هي سبع آيات ، وليس منهن بسم الله الرحمن الرحيم . ولكن السابعة أنعمت عليهم . وذلك قول أعظم قرّاء أهل المدينة ومتفقّهيهم (٥)

والذي رجح لدينا ، والله تعالى أعلم ، أن قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم آية ، وعليه ، فالبسملة ليست آية من الفاتحة ولا من سواها ، إنما هي بعض آية من سورة النّمل ومنْ أكبر الأدلة على أن السورة الكريمة تبدأ بالحمد لله رب العالمين هو أنّها ، في غير ما حديث له صلى الله عليه وسلم ، قد أشير إليها بالحمد لله رب العالمين ، فالحمد من أسماء السورة الكريمة الكثيرة كما سنرى ، وليست البسملة من هذه الأسماء . جاء في صحيح البخاري (٦) عن أبي سعيد بن المعلّى قال : كنت أصلّي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه فقلت : يا رسول الله :

---

(١) انظر هنا مثلا تفسير الجلالين والكشاف ٢١/١ وتفسير ابن كثير ٨/١ والبحر المحيط ٣١/١ وتفسير الطبرى ٣٧/١ ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٣١/١ بشأن من شذ عن الاجماع بكون الفاتحة سبع آيات ، ممن لا يعتبر خلافه : « وشذ عمرو بن عبيد فجعل آية اياك نعبد · فهى على عده ثمان آيات · وشذ حسين الجعفى فزعم أنها ست آيات · قال ابن عطية : وقول الله تعالى : ولقد اتيناك سبعا من المثانى هو الفصل فى ذلك ·

(٢) البحر المحيط ٣١/١ ·

(٣) تفسير ابن كثير ٨/١ ·

(٤) البحر المحيط ٣١/١ ·

(٥) تفسير الطبرى ٣٧/١ ·

(٦) ٢٠/٦ ·

إني كنت أصلي فقال : ألم يقل الله : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » ثم قال لي : لأعلمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد ، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل : لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : الحمد لله رب العالمين ، هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته . هكذا رواه البخاري . ورواه في موضع آخر من التفسير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبيّ بن كعب وهو يصلي في المسجد . فلما فرغ من صلاته لحقه قال : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم : يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورةً ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها . قال أبيّ رضي الله عنه : فجعلت أبطيء في المشي ، رجاء ذلك ثم قلت : يا رسول الله . ما السورة التي وعدتني ؟ قال : كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه : الحمد لله رب العالمين ، حتى أتيت على آخرها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت(١) وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها (٢) ، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل . فإذا قال : الحمد لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي . الحديث (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ٩/١ وانظر صفحة ١٠ فثمة صيغة اخرى للحديث الذى رواه ابو هريرة رضى الله تعالى عنه .
(٢) تفسير ابن كثير ١٠/١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١١/١ .

خامساً : لهذه السورة الكريمة العديد من الأسماء ، ومن المعروف أن كثرة الأسماء دليلٌ على شرف المسمّى ، وبإلقاء نظرة على صحيح البخاري كتاب التفسير ، وعلى أربعة من كتب التفسير هي البحر المحيط لأبي حيّان ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبيّ ، وتفسير الطبريّ . يتضح أنه أمكن إحصاء تسعة عشر اسماً لهذه السورة الكريمة ، مع اختلاف طفيف في بعض الصّيغ . ومن هذه الأسماء ما ورد في أحاديث صحيحة . لقد ذكر أبو حيّان في البحر المحيط (١) ستة عشر اسماً هي على النحو التالي :

«١» الحمد «٢» فاتحة الكتاب (الفاتحة) «٣» أمّ الكتاب «٤» السبع المثاني (المثاني) «٥» الواقية «٦» الكافية «٧» الشفاء «٨» الشافية «٩» الرّقية «١٠» الكنز «١١» الأساس «١٢» النّور «١٣» سورة الصلاة (الصلاة) «١٤» سورة تعليم المسألة «١٥» سورة المناجاة «١٦» سورة التفويض .

وذكر الزّمخشريّ في الكشّاف (٢) عشرة أسماء للسورة الكريمة ، يتّفق في سبعة أسماء منها مع أبي حيّان في البحر المحيط ، ويزيد ثلاثة أسماء هي :

«١» أمّ القرآن «٢» الوافية «٣» القرآن العظيم .

وذكر ابن كثير في تفسيره (٣) ثلاثة عشر اسماً ، يتفق في أحد عشر اسماً مع أبي حيّان ، ويتفق في اثنين مع الزمخشريّ .

---

(١) ١/٣٢ .

(٢) ١/٢٠ و ٢١ ، ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) ١/٨ .

وذكر القرطبيّ في تفسيره (١) اثنى عشر اسماً ، يتفق في تسعة منها مع أبي حيان ويتفق في الثلاثة الباقية مع الزمخشريّ .

وذكر الطبريّ في تفسيره (٢) ثلاثة أسماء يتفق في اثنين مع أبي حيّان ، وواحد مع الزمخشري وابن كثير والقرطبيّ .

وذكر البخاري في صحيحه (٣) اسماً واحداً هو أمّ الكتاب وإليك جدولاً بالأسماء التي وردت في هذه الكتب الخمسة :

---

(١) ص ٩٦ ـ ٩٨ .
(٢) ٣٦/١ .
(٣) ٢٠/٦ .

جاء في البحر المحيط : وذكروا أن الفاتحة تسمّى	الكشاف	تفسير ابن كثير	تفسير القرطبي	تفسير الطبري	صحيح البخاري
(١) الحمد	✓	✓	✓	—	—
(٢) فاتحة الكتاب «الفاتحة»	✓	✓	✓	✓	—
(٣) أمّ الكتاب	—	✓	✓	—	✓
(٤) السّبع المثاني	✓	✓	المثاني	✓	—
(٥) الواقية	—	✓	—	—	—
(٦) الكافية	—	✓	✓	—	—
(٧) الشّفاء	✓	✓	✓	—	—
(٨) الشّافية	✓	—	—	—	—
(٩) الرّقية	—	✓	✓	—	—
(١٠) الكنز	✓	✓	—	—	—
(١١) الأساس	—	أساس القرآن	✓	—	—
(١٢) النّور	—	—	—	—	—
(١٣) سورة الصّلاة	✓	الصّلاة	الصّلاة	—	—
(١٤) سورة تعليم المسألة	—	—	—	—	—
(١٥) سورة المناجاة	—	—	—	—	—
(١٦) سورة التّفويض	—	—	—	—	—
(١٧)	أم القرآن	✓	✓	✓	—
(١٨)	الوافية	—	✓	—	—
(١٩)	القرآن العظيم	✓	✓	—	—
المجموع ١٦	١٠	١٣	١٢	٣	١

وهذه بعض آراء العلماء بشأن معاني بعض أسماء السورة الكريمة .

وبما أن القرطبيّ في تفسيره (١) من أكثر المفصّلين لمعاني أسماء السورة ، فإنا نودّ أن نجعل من كلامه أساساً .

١ – الصلاة : لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربّه ، قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين . فإذا قال العبد : الحمدُ لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي ، الحديث . فسمّيت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها (٢) وقال الزمخشريّ في تعليل تسميتها بالصلاة : لأنها تكون فاصلة أو مجزئة بقراءتها فيها (٣) .

٢ – الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد ، كما يقال سورة الأعراف والأنفال والتوبة ونحوها (٤) .

٣ – الفاتحة ، أي فاتحة الكتاب(٥) وسمّيت بذلك لأنها تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً ، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطّاً وتفتتح بها الصّلوات(٦)

٤ – أمّ الكتاب ، يقول البخاريّ (٧) : « وسمّيت أمّ الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة .

---

(١) ص ٩٦ـ٩٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٨ .
(٣) الكشاف ١/٢١ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٩٧ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير ١/٨ .
(٦) تفسير القرطبى ص ٩٧ وانظر تفسير ابن كثير ١/٨ وتفسير الطبرى ١/٣٦ .
(٧) الصحيح ٦/٢٠ .

٥ ــ أمّ القرآن ، يقول القرطبيّ (١) : « وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتّى قيل إنّ جميع القرآن فيها . وهي خمسٌ وعشرون كلمة ، تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده . ولا تصحّ القربة إلا بها ، ولا يلحق عملٌ بثوابها . وبهذا المعنى صارت أمّ القرآن العظيم ، كما صارت قل هو الله أحد ، تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ . و : « قُلْ هو الله أحد » فيها التوحيد كلّه . وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السلام لأبيّ : أيّ آية في القرآن أعظم ؟ قال : الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيدٌ كلّها . كما صار قوله : أفضل ما قلته أنا والنّبيّون من قبلي : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، أفضل الذّكر ، لأنها كلمات حوَتْ جميع العلوم في التوحيد . والفاتحة تضمنت التوحيد ، والعبادة ، والوعظ ، والتذكير . ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى » ويقول الطبريّ (٢) : « وسمّيت أمّ القرآن لتقدمها على سائر سور القرآن غيرها ، وتأخّر ماسواها خلفها ، في القراءة والكتابة . وذلك من معناها شبيهٌ بمعنى فاتحة الكتاب . وإنما قيل لها لكونها كذلك أمّ القرآن ، لتسمية العرب كلّ جامع أمراً ، أو متقدّماً لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه وهو لها إمامٌ جامع : أمّاً . فتقول للجلدة التي تجمع الدّماغ أمّ الرّأس ، وتسمّى لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أمّاً ، وقد قيل إن مكّة سمّيت أمّ القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها » (٣) ويقول الزمخشريّ (٤) : « وتسمّى أمّ القرآن

---

(١) ص ٩٦ .

(٢) ٣٦/١ .

(٣) تفسير الطبرى ٣٧/١ .

(٤) الكشـاف ٢٠/١ .

لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثّناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التّعبُّد بالأمر والنّهي ، والوعد والوعيد » .

٦ — المثاني (١) أو السبع المثاني (٢) وقد صحّ تسميتها بالسبع المثاني(٣) وأما تأويل اسمها أنها السبع ، فإنها سبع آيات لا خلاف بين الجميع من القرّاء والعلماء في ذلك . . وأمّا وصف النبي صلى الله عليه وسلم آياتها السبع بأنهنّ مثانٍ فلأنها تثنّى قراءتها في كل صلاة تطوّع ومكتوبة ، وكذلك كان الحسن البصريّ يتأوّل ذلك (٤) .

٧ — القرآن العظيم . سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن . وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل ، بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيءٍ منها ، إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال إليه ، في الهداية إلى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيان عاقبة الجاحدين (٥) .

٨ — الشّفاء . روى الدّارميّ عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاتحة الكتاب شفاءٌ من كلّ سمّ (٦) .

٩ — الرّقية : ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدريّ وفيه أن رسول

---

(١) الكشاف ١/٢٠ وتفسير القرطبى ص ٩٧ .
(٢) البحر المحيط ١/٣٢ وتفسير الطبرى ١/٣٦ والكشاف ١/٥٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٩ .
(٤) تفسير الطبرى ١/٣٧ وهذا المعنى لدى الزمخشرى ١/٢١ وابن كثير ١/٩ والقرطبى ص ٩٧ .
(٥) تفسير القرطبى ص ٩٨ .
(٦) تفسير القرطبى ص ٩٨ وتفسير ابن كثير ١/٨ .

الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رقى سيّد الحيّ : ما أدراك أنها رقية . فقال : يا رسول الله . شيءٌ أُلقِي في رُوعي . الحديث خرّجه الأئمة (١) .

١٠- الأساس : روى الشعبيّ عن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن . قال : أساسها بسم الله الرحمن الرحيم (٢) .

١١- الوافية ، قاله سفيان بن عيينة ، لأنها لا تتنصّف ولا تحتمل الاختزال . ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ . ولو نصّفت الفاتحة في ركعتين لم يجز (٣) .

١٢- الكافية . قال يحي بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ، ولا يكفي سواها عنها (٤) .

١٣ ، ١٩ - الأسماء الباقية للسورة الكريمة واضحة معانيها وهي : الواقية ، والشافية ، والكنز ، والنور ، وسورة تعليم المسألة ، وسورة المناجاة ، وسورة التفويض .

سادساً : ورد في سورة الفاتحة من أسماء الله تعالى الحسنى : خمسة : الله . الرّبّ . الرحمن . الرحيم . المالك (٥) .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٩٨ وانظر تفسير ابن كثير ١/٨ وفى الصفحة ١٠ حديث البخارى عن الذى رقى بالفاتحة .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٨ وانظر تفسير القرطبى ص ٩٨ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٩٨ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٩٨ .
(٥) تفسير أسماء الله الحسنى ، أبو اسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج ص ١٠ .

سابعاً : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر (الأنباريّ) يعنّي أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأمّ القرآن قبل السورة المتلوّة بعدها . فقال : اختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها في الصلاة (١) .

ثامناً : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداجٌ ثلاثاً غير تمام . فقيل لأبي هريرة : إنّا نكون خلف الإمام . فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . فإذا قال : الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم . قال الله : أثنى عليّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله : مجّدني عبدي . وقال مرّة : فوّض إليّ عبدي . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » (٢) يقول القرطبيّ (٣) : « واختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة ، فقال مالك وأصحابه : هي متعيّنة للإمام والمنفرد في كل ركعة » « وقال الشافعيّ فيما حكى عنه البويطيّ وأحمد ابن حنبل : لا تجزيء أحداً صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة ، إماماً كان أو مأموماً ، جهر إمامه أو أسرّ . وكان الشافعيّ بالعراق يقول في

---

(١) تفسير القرطبى ص ٩٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/١١ .
(٣) تفسير القرطبى ص ١٠٢ وثمة كلام طويل وآراء عدة .

المأموم : يقرأ إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جهر ، كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر ، فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة ، قولان : أحدهما أن يقرأ . والآخر يجزئه ألاّ يقرأ ويكتفي بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئاً ، جهر إمامه أو أسرّ ، لقوله عليه السلام : فقراءة الإمام له قراءة . وهذا عامّ . ولقول جابر : مَنْ صلّى ركعةً لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصلّ ، إلاّ وراء الإمام (١) وقد علق القرطبيّ على هذه الآراء وغيرها مما لم نذكر قائلا (٢) : « الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعيّ وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وقوله: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداجٌ ثلاثاً . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد . أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها . وبه قال عبد الله بن عون . وأيوب السختياني ، وأبو ثور ، وغيره من أصحاب الشافعيّ ، وداود بن عليّ ، وروي مثله عن الأوزاعيّ . وبه قال مكحول » .

تاسعاً : للقرطبي في تفسيره كلام قيم بشأن من عجز عن حفظ الفاتحة رغم اجتهاده يقول رحمه الله تعالى (٣) : « من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده ، فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيءٌ من القرآن ، ولا علق منه بشيءٌ ،

---

(١) تفسير القرطبى ص ١٠٣ .
(٢) تفسير القرطبى ص ١٠٣ .
(٣) تفسير القرطبى ص ١٠٩ ، ١١٠ .

لزمه أن يذكر الله في موضع القراءة بما أمكنه ، من تكبير أو تهليل ، أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا صلى وحده أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام . فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبي أوفى قال : جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً ، فعلمني ما يجزئني منه . قال : قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال : يا رسول الله ، هذا لله فما لي ؟ قال : قل : اللهمّ ارحمني وعافني واهدني وارزقني .. فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ ، فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ، فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله . . وعليه أبداً أن يجهد نفسه في تعلم فاتحة الكتاب فما زاد ، إلى أن يحول الموت دون ذلك ، وهو بحال الاجتهاد ، فيعذره الله .. ومن لم يواته لسانه إلى التكلم بالعربية من الأعجميين وغيرهم ، وترجم له الدعاء العربيّ بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته ، فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

هل البسملة آية من الفاتحة وغيرها من السور ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصّحابة كتاب الله . واتّفق العلماء على أنّها بعض آية من سورة النّمل ، ثمّ اختلفوا ، هل هي آية مستقلّة في أوّل كلّ سورة أو من كلّ سورة كتبت في أوّلها ، أو أنّها بعض آية من كلّ سورة ، أو أنّها كذلك في الفاتحة دون غيرها . أو أنّها إنّما كتبت للفصل لا أنّها آية ، على أقوال العلماء سلفاً وخلفاً(١) .

قرّاء المدينة و البصرة والشّام وفقهاؤها على أنّ التّسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السّور . وإنّما كتبت للفصل والتبرّك بالابتداء بها ، كما بديء بذكرها في كلّ أمرٍ ذي بال . وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه ، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصّلاة(٢) وهذا هو الثابت(٣) عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مغفّل ، وطوائف من سلف التّابعين والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة والثّوريّ وأحمد بن حنبل(٤) .

وقرّاءمكّة والكوفة وفقهاؤهما على أنّها آية من الفاتحة ومن كلّ سورة ، وعليه الشّافعيّ وأصحابه رحمهم الله ، ولذلك يجهرون بها وقالوا : قد أثبتها السّلف في المصحف ، مع توصيتهم بتجريد القرآن ، ولذلك لم يثبتوا آمين .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٦ ·

(٢) الكشاف ١/٢١ وهذا هو رأى الطبرى فى تفسيره ١/٤٩ ·

(٣) يريد عدم الجهر بالبسملة فى الصلاة ·

(٤) تفسير ابن كثير ١/١٧ و ١٦ ·

فلولا أنّها من القرآن لما أثبتوها . وعن ابن عبّاس : من تركها فقد ترك مائةً وأربع عشرة آيةً من كتاب الله تعالى(١) وفي سنن أبي داود بإسنادٍ صحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان لا يعرف فصل السّورة حتّى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرّحيم(٢) وممّن حُكي عنه أنّها آيةٌ من كلّ سورةٍ إلاّ براءة ، ابن عبّاس ، وابن عمر ، وابن الزّبير ، وأبو هريرة ، وعليّ . ومن التّابعين عطاء وطاوس وسعيد ابن جبير ومكحول والزّهريّ . وبه يقول عبد الله بن المبارك ، والشّافعيّ ، وأحمد بن حنبل في روايةٍ عنه ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم ابن سلاّم رحمهم الله (٣) .

وأهمّ ما في الأمر أنّ العلماء رحمهم الله تعالى قد أجمعوا على صحّة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسرّ ، ولله الحمد والمنّة(٤) .

وللقرطبيّ في تفسيره رأيٌ في هذه المسألة نوافقه فيه ، ونحن مضطرون لنقل النّصّ المائل إلى الطّول نسبيّا ، لأنّها مسألة مهمّة لم تتّفق بشأنها الآراء . يقول رحمه الله تعالى(٥) : « الصّحيح من هذه الأقوال قول مالك (إمام دار الهجرة) لأنّ القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد ، وإنّما طريقه التّواتر القطعيّ الذي لا يختلف فيه . قال ابن العربيّ : ويكفيك أنّها ليست من القرآن اختلاف النّاس فيها ، والقرآن لا يختلف النّاس فيه . والأخبار الصّحاح التي لا مطعن فيها دالّةٌ على أنّ البسملة ليست بآيةٍ من الفاتحة ولا غيرها ، إلا في النّمل

(١) الكشاف ٢١/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٦/١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٦/١ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٧/١ .
(٥) تفسير القرطبى ص ٨١ .

وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : قال الله عزّ وجلّ : قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل . فإذا قال العبد : الحمد لله ربّ العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي وإذا قال العبد : الرّحمن الرّحيم ، قال الله : أثنى عليّ عبدي . وإذا قال العبد : مالك يوم الدّين قال : مجّدني عبدي — وقال مرّة : فوّض إليّ عبدي — وإذا قال : إيّاك نعبد وإيّاك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصّراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل . فقوله سبحانه : قسمت الصّلاة ، يريد الفاتحة . وسمّاها صلاة ، لأنّ الصّلاة لا تصحّ إلاّ بها . فجعل الثّلاث الآيات الأول لنفسه ، واختصّ بها تبارك اسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثمّ الآية الرّابعة جعلها بينه وبين عبده ، لأنّها تضمّنت تذلّل العبد وطلب الاستعانة منه ، وذلك يتضمّن تعظيم الله تعالى ثمّ ثلاث آيات تتمّة سبع آيات . وممّا يدلّ على أنّها ثلاث آيات قوله : هؤلاء لعبدي . أخرجه مالك . ولم يقل : هاتان . فهذا يدلّ على أنّ أنعمت عليهم آية . قال ابن بكير قال مالك : أنعمت عليهم آية . ثمّ الآية السّابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة الّتي قسمها الله تعالى ، وبقوله عليه السّلام لأبيّ : كيف تقرأ إذا افتتحت الصّلاة قال : فقرأت : الحمد لله ربّ العالمين ، حتّى أتيت على آخرها ، أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشّام وأهل البصرة . وأكثر القرّاء عدّوا أنعمت عليهم آية . وكذا روى قتادة عن أبي نضرة عن أبي هريرة قال : الآية السّادسة أنعمت عليهم . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنّهم عدّوا فيها : بسم الله الرّحمن الرّحيم . ولم يعدّوا أنعمت عليهم .

ويرى القرطبيّ أنّها ثبتت في المصحف لكونها فاصلة بين السّور

أو تبركاً بها . يقول(١) : « روى الصّحابة : كنّا لانعرف انقضاء السّورة حتّى تنزل بسم الله الرّحمن الرّحيم . أخرجه أبو داود . أو تبركاً بها ، كما قد اتفقت الأمّة على كتبها في أوائل الكتب والرّسائل » .

وقد لخّص القرطبيّ هذا الرّأي الرّاجح في اعتقاده قائلا(٢) : « وجملة مذهب مالك وأصحابه أنّها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها . ولا يقرأ بها المصلّي في المكتوبة ولا في غيرها ، لا سرّاً ولا جهراً . ويجوز أن يقرأها في النّوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه روايةٌ أخرى : إنّها تقرأ أوّل السّورة في النّوافل . ولا تقرأ أوّل أُمّ القرآن . وروى عنه ابن نافع : ابتداء القراءة بها في الصّلاة الفرض والنّفل ولا تترك بحال . ومِنْ أهل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، منهم ابن عمر ، وابن شهاب وبه قال الشّافعيّ ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وأبو عبيد . وهذا يدلّ على أنّ المسألة مسألةٌ اجتهاديّة لا قطعيّة » .

فضل بسم الله الرّحمن الرّحيم

عن ابن عبّاس أنّ عثمان بن عفّان سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن : بسم الله الرّحمن الرّحيم فقال : هو اسمٌ من أسماء الله ، و ما بينه وبين اسم الله الأكبر إلاّ كما بين سواد العينين وبياضهما من القُرْب(٣) وتستحبّ في أوّل الخطبة لما جاء : كلّ أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرّحمن الرّحيم فهو أجذم . وتستحبّ البسملة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث في ذلك . وتستحبّ في أوّل الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسُّنن

---

(١) تفسير القرطبى ص ٨٢ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٨٣ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٧/١ .

من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبي سعيد مرفوعاً لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه . وهو حديثٌ حسن . . وهكذا تستحبّ عند الأكل . . وكذلك تستحبّ عند الجماع ، لما في الصحيحين عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهمّ جنّبنا الشّيطان وجنّب الشّيطان ما رزقتنا ، فإنّه إن يقدر بينهما ولدٌ لم يضرّه الشّيطان أبداً وقال الطّبريّ في تفسيره : « إنّ الله تعالى ذكره ، وتقدّست أسماؤه ، أدّب نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى ، أمام جميع أفعاله ، وتقدّم إليه في وصفه بها قبل جميع مهمّاته ، وجعل ما أدّبه من ذلك وعلّمه إيّاه منه لجميع خلقه ، سنّةً يستنّون بها ، وسبيلا يتّبعونه عليها في افتتاح أوائل منطقهم وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم حتّى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل : بسم الله ، على ما بطن من مراده الذي هو محذوف » .

ونحن في دراستنا المتأمّلة لسورة الفاتحة الكريمة ، نبدأ قولا وعملا

بسم الله الرّحمن الرّحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ ابتداء السّورة الكريمة بـ « بسم الله الرّحمن الرّحيم » والحثّ من قبل المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على أن يبدأ بذلك كلّ أمر ذي بال وإلاّ كان أمراً أبتر أو أجزم ، بمثابة الدّرس التّطبيقي للمسلمين بأنّ عليهم أن يربطوا كلّ أمورهم بالله تعالى . فمنه جلّ وعلا يستمدّون العون ، ويستلهمون السّداد في القول ، والإصابة في العمل ، وعليه يتوكّلون في كلّ ما يأتون من أعمال ، فلا حول ولا قوّة لهم إلاّ به عزّ وجلّ .

ما أخلق المسلمين لله ربّ العالمين ، أن يجعلوا لسانهم رطباً بهذا التّعبير الطيّب : « بسم الله الرّحمن الرّحيم » الذي هو جزءٌ من القرآن الكريم في سورة النّمل(١) ، والذي صدّرت به مائةٌ وثلاث عشرة سورةً من سور القرآن الكريم المائة والأربع عشرة ، لأنّ هذا التّعبير الطيّب المبارك ، يجعل المسلم لله ربّ العالمين ، يحسّ في أعماقه ، حينما يكون هذا التّعبير الطيّب جزءاً من معجمه اللّغويّ الملازم له ، بأنّ الأعمال التي يقوم بها ، ينبغي أن تكون مجانسةً في الطيب لهذا التّعبير الطيّب ، ومِنْ ثَمَّ هو بعون الله تعالى ، لا يأتي من الأعمال إلاّ ما كان طيّباً . وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والمسلم لله ربّ العالمين ، يباشر كلّ عملٍ من أعماله اليوميّة ، متمثّلا تلك المعاني السّامية التي تفيض من اشتمال هذا التّعبير الطيّب المبارك على ثلاثةٍ من أسماء الله تعالى الحسنى ، الله . الرّحمن . الرّحيم . وإنّ كلاً

---

(١) الآية ٣٠ .

من هذه الأسماء الثّلاثة ، ليفيض بالكثير من المعاني الطيّبة العطرة الجياشة الّتي تعجز النّفس عن الإحاطة بها ، فضلا عن قدرة القلم على تحبير كل ممّا تحسّ به هذه النّفس أو بعضه .

وإذا كان الاسم الأوّل ، هو الاسم الأعظم للذّات العليّة ، الّتي أوجدت هذا الإنسان من العدم ، وخلقته في أحسن تقويم ، وأسبغت عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وسخرت له ما في السّماوات وما في الأرض ، فإنّ إرداف هذا هذا الاسم الأعظم ، باسمين آخرين للذّات العليّة ، هما في الحقيقة صفتان لمعنىً واحد ، يعتبر الإنسان دائماً وأبداً في أمسّ الحاجة له . وهذا المعنى هو الرّحمة .

إنّ المسلم لله ربّ العالمين ، ليستشعر عظمة الله تعالى وهو يعطّر فمه كلّ وقتٍ بلفظ الجلالة « الله » وما أروعها عظمة ، تلك الّتي تملأ نفس المسلم لله ربّ العالمين ، خشيةً لله تعالى وحبّاً وإجلالاً ، وقد قُرنت بنعمةٍ من أكبر نعم الله تعالى على مخلوقاته ، تفتقر إليها الإنسانية افتقارها للهواء والماء بل أشدّ افتقاراً . إنّ هذه النّعمة العظمى هي رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيء . وما أكبر شعور المسلم لله ربّ العالمين وأعظمه ، وقد هداه الله تعالى إلى سواء السّبيل ، حينما يكون هذا الشّعور نابعاً من امتنانٍ واعٍ لنعم الله تعالى عليه ورحمته الّتي تمثّلت في نيله نصيبه من رحمة الله تعالى المهداة ، محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، النّور المبين ، والسّراج المنير ، سائلاً الله تعالى بحرارة وإخلاصٍ من أعماقه أن يديم عليه نعمه الظّاهرة والباطنة ، وبخاصّةٍ نصيبه من الرّحمة الّتي وسعت كلّ شيء ، والّتي أشار إليها مثلاً قوله تعالى من سورة الأعراف(١) : **ورحمتي وسعت**

---

(١) الآية ١٥٦ .

كلّ شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون» . داعياً الله تعالى من أعماقه أن تتّسع دائرة الإيمان كي تتّسع دائرة الرّحمة كذلك . وقد نصّت الآية الكريمة التّالية من سورة الأعراف على طبيعة أولئك الذين ستشملهم بإذنه تعالى رحمة البرّ الرّحيم . قال تعالى(١) : **« الذين يتّبعون الرّسول النبيّ الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون »** وقد جاء في وصف عالميّة الدّعوة الإسلامية قوله تعالى في الآية الكريمة التّالية مباشرة(٢)

« قل يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون » .

وربّما كان مفيداً أن نسجّل باختصار مجمل آراء النّحويّين في متعلّق الباء في قوله تعالى : بسم الله . إنّ منهم من ذهب إلى أنّ المتعلّق اسم ، ومنهم من ذهب إلى أنّ المتعلّق فعل . وقد علّق ابن كثير(٣) على ذلك قائلاً : وكلٌ قد ورد به القرآن . أمّا من قدّره باسم، تقديره بسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : **« وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إنّ ربّي لغفور رحيم »** ومَنْ قدّره بالفِعْل أمراً أو خبراً نحو أبدأ بسم الله ، أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى : **« اقرأ باسم ربّك الذي خلق »** (٤) .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .
(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٨/١ .
(٤) لقد فصل القرطبي في تفسيره ص ٨٦ القول في هذه المسالة .

وحيث إنّ لمنهجنا عناية خاصّة بالنّاحية البلاغيّة البيانيّة أو الإعجازيّة ، وحيث إنّ للزّمخشريّ يداً طولى في هذا المضمار ، فلنُصْغِ إلى قوله في هذه المسألة يقول (١) : « فإن قلت : بم تعلّقت الباء قلت : بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ أو أتلو ، لأنّ الذي يتلو التّسمية مقروء ، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى ، بسم الله أحلّ ، وبسم الله أرتحل . وكذلك الذّابح وكلّ فاعلٍ يبدأ في فعله ببسم الله ، كان مُضْمِراً ما جعل التّسمية مبدءاً له . ونظيره في حذف متعلّق الجارّ قوله عزّ وجلّ : في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه ، أي اذهب في تسع آيات . وكذلك قول العرب في الدّعاء للمعرّس : بالرّفاء والبنين . وقول الأعرابي : باليمن والبركة ، بمعنى أعرست أو أنكحت . ومنه قوله :

فقلت إلى الطّعام فقال منهم   فريقٌ نحسـد الإنسَ الطّعاما

فإن قلت : فلم قدّرت المحذوف متأخراً قلت : لأنّ الأهمّ من الفعل والمتعلّق به هو المتعلّق به ، لأنّهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللّات باسم العزّى . فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عزّ وجلّ بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل ، كما فعل في قوله : « إيّاك نعبد » حيث صرّح بتقديم الاسم إرادةً للاختصاص . والدّليل عليه قوله « باسم الله مجراها ومرساها » فإن قلت « فقد قال « اقرأ باسم ربّك » فقدّم الفعل قلت : هناك تقديم الفعل أوقع ، لأنّها أوّل سورةٍ نزلت ، فكان الأمر بالقراءة أهمّ » .

والاسم : هو اللّفظ الدّالّ بالوضع على موجودٍ في العيان إن كان

---

(١) الكشاف ٢٢/١ .

محسوساً ، وفي الأذهان إن كان معقولاً ، من غير تعرّضٍ بنيته للزّمان ، ومدلوله هو المسمى(١) .

وقد اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين . فقال البصريّون : هو مشتقٌ من السّموّ ، وهو العلوّ والرّفعة ، فقيل اسم (٢) لأنّ التّسميةَ تنويهٌ بالمسمّى وإشادةٌ بذكره (٣) وقال الكوفيّون : إنّه مشتقٌ من السّمة ، وهي العلامة ، لأنّ الاسم علامةٌ لِمَنْ وُضِعَ له ، فأصل اسم على هذا وسم . والأوّل أصحّ ، لأنّه يقال في التّصغير سميّ ، وفي الجمع أسماء . والجمع والتّصغير يردّان الأشياء إلى أصولها . فلا يقال : وسيم ولا أوسام (٤) .

والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السّكون(٥) فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة ، لئلا يقع ابتداؤهم بالسّاكن ، إذ كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرّك ويقفوا على السّاكن لسلامة لغتهم من كلِّ لكنةٍ وبشاعة ، ولوضعها على غايةٍ من الإحكام والرّصانة (٦) .

وحذفت الألف من بسم هنا في الخطّ تخفيفاً لكثرة الاستعمال (٧) .

---

(١) البحر المحيط ١/١٦ .

(٢) تفسير القرطبى ص ٨٨ .

(٣) الكشاف ١/٢٩ .

(٤) تفسير القرطبى ص ٨٨ .

(٥) وهذه الاسماء العشرة مسموعة وهي اسم واست وابن وابنم وابنة وامرؤ وامرأة واثنان واثنتان وأيمن المختصة بالقسم . وماعدا ذلك فهمزته همزة قطع . انظر شذا العرف ص ١٤٨ .

(٦) الكشاف ١/٢٨ .

(٧) البحر المحيط ١/١٦ .

وهذا تعليمٌ من الله تعالى عباده ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتّى يكون الافتتاح ببركة الله جلّ وعزّ (١) .

ٱللَّهِ

الله علمٌ على الرّبّ تبارك وتعالى . يقال إنّه الاسم الأعظم ، لأنّه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى « هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشّهادة هو الرّحمن الرّحيم ، هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر ، سبحان الله عمّا يشركون ، هو الله الخالق الباريء المصوّر له الأسماء الحسنى ، يسبّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فأجرى الأسماء الباقية كلّها صفاتٍ له ، كما قال تعالى :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وقال تعالى « قل ادعوا الله أو ادعو الرّحمن أيّاماً تدعو فله الأسماء الحسنى » وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائةً إلاّ واحداً ، من أحصاها دخل الجنّة . . وهو اسمٌ لم يسمّ به غيره تبارك وتعالى (٢) .

والله أصله الإله (٣) ونظيره النّاس ، أصله الأناس . قال :

إنّ المنــــايا يطّلِعْن على الأناس الآمنينا

---

(١) تفسير القرطبى ص ٨٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩/١ .

(٣) الكشاف ٢٩/١ .

فحذفت الهمزة ، وعوّض منها حرف التّعليل ، ولذلك قيل في النّداء : يا ألله بالقطع ، كما يقال : يا إله (١) .

والإله من أسماء الأجناس كالرّجل والفرس ، اسمٌ يقع على كلّ معبودٍ بحقٍّ أو باطل ، ثمّ غلب على المعبود بحقّ ، كما أنّ النجم اسمٌ لكلّ كوكب ، ثمّ غلب على الثّريّا ، وكذلك السّنة على عام القحط ، والبيوت على الكعبة ، والكتاب على كتاب سيبويه . وأمّا الله ، بحذف الهمزة ، فمختصٌّ بالمعبود بالحقّ ، لم يطلق على غيره (٢) .

وأصل الإله من أله يأله ، إذا تحيّر . يريد ، إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الرّبوبيّة ، وصرف وَهْمَهُ إليها ، أبغض النّاس حتّى لا يميل قلبه إلى أحد (٣) وروى المنذريّ عن أبي الهيثم أنّه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللّغة فقال : كان حقّه إلاه ، أُدْخِلَتِ الألف واللاّم تعريفاً فقيل : الإلاه . ثمّ حَذَفَت العرب الهمزة استثقالاً لها . فلمّا تركوا الهمزة حوّلوا كسرتها في اللاّم التي هي لام التّعريف ، وذهبت الهمزة أصلاً فقالوا : أَلِلاه ، فحرّكوا لام التّعريف التي لا تكون إلاّ ساكنة ، ثمّ التقى لامان متحرّكان فأدغموا الأولى في الثّانية فقالوا : الله . كما قال الله عزّ وجلّ : « لكنّا هو الله ربي » معناه : لكن أنا (٤) وقيل إنّ أصل إلاه ولاه ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا للوشاح إشاح ، وللوِجاح ، وهو السّتر إجاح . ومعنى ولاه ، أنّ الخلق يولهون إليه في حوائجهم ، ويضرعون

---

(١) الكشاف ١/٣٠ .
(٢) الكشاف ١/٣٠ .
(٣) اللسان « اله » .
(٤) اللسان « اله » .

إليه فيما يصيبهم ، ويفزعون إليه في كلّ ما ينوبهم ، كما يَوْلَه كلّ طفلٍ إلى أمه . وقد سمّت العرب الشّمس لمّا عبدوها إلهة . . ابن سيدة :

والإلهة والألوهة والألوهيّة : العبادة (١) .

ومن هذا الاسم اشتقّ تألّه وأله واستأله ، كما قيل : استنوق واستحجر في الاشتقاق من النّاقة والحجر (٢) وقد أضاف الزّمخشريّ (٣) إلى ذلك قائلاً : « فإن قلت : هل لهذا الاسم اشتقاقٌ قلت : معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنىً واحد . وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم أله إذا تميز ، ومن أخواته دَلِه (٤) وعَلِه (٥) ينتظمهما معنى التّحيّر والدّهشة . وذلك أنّ الأوهام تتحيّر في معرفة المعبود ، وتدهش الفطن ، ولذلك كثر الضّلال ، وفشا الباطل ، وقلّ النّظر الصحيح » .

وقد أضاف صاحب اللّسان (٦) : « وأصله وله يَوْله وَلَهاً ، وقد أَلِهْتُ على خلان ، أي اشتدّ جزعي عليه مثل وَلِهْت . . وقيل : هو مأخوذٌ مِنْ أَلِه يَأْلَهُ إلى كذا ، أي لجأ إليه ، لأنّه سبحانه المفزع الذي يُلْجأ إليه في كلّ أمر . . والتّألّه التّنسُّك والتّعبّد . والتّأليه التّعبيد » وقال أيضاً : « والله أصله إله ، على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنّه مألوهٌ أي معبود . كقولنا إمام فِعال بمعنى مفعول ، لأنّه مُؤْتَمٌّ به » .

---

(١) اللسان « اله » .
(٢) الكشاف ١/٣١ .
(٣) الكشاف ١/٣٢ .
(٤) دله ، كفرح : تحير او جن عشقا او غما القاموس .
(٥) عله كفرح تحير ودهش وجاء وذهب فزعا القاموس .
(٦) « اله » .

« فإن قلت : هل تفخّم لامه ، قلت نعم ، قد ذكر الزّجاج أن تفخيمها سنّة . وعلى ذلك العرب كلّهم . وإطباقهم عليه دليل على أنّهم ورثوه كابراً عن كابر» (١) وقد قال الزّجاج (٢) بشأن لفظ الجلالة « الله » : « واختلفوا في : هل هو مشتق أم غير مشتق . فذهبت طائفة إلى أنّه مشتق وذهب جماعة ممّن يوثق بعلمه إلى أنّه غير مشتق . وعلى هذا القول المعوّل . ولا تعرّج على قول من ذهب إلى أنّه مشتق من وَلِه يَوْلَه ، ونحن في حقيقة الأمر مع القائلين بأنّه مشتق .

---

(١) الكشاف ١/٣٣ .

(٢) تفسير اسماء الله الحسنى ص ٢٥ .

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من العلماء من ذهب إلى أنّ الرّحيم بمعنى الرّحمن(١) ولكنّ جمهور العلماء يرون أنّ الرّحمن أشدّ مبالغة من الرّحيم ، وإن كان ثمّة قليلٌ من العلماء يرون صيغة المبالغة رحيم أشدّ مبالغةً من الصّيغة الأخرى الرّحمن(٢) .

ونحن نرى رأي جمهور العلماء . فلو أنّنا نظرنا إلى أسماء الله تعالى الحسنى الثّلاثة في القول : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، لاستطعنا أن ننتهي إلى أنّ هذا التّرتيب للألفاظ وفق المعنى الذي ذهب إليه جمهور العلماء ، يحقّق نوعاً لطيفاً من التّرتيب المنطقي للمعاني ، من الجائز ألاّ نتبيّنه لو ذهبنا إلى أنّ رحيم أشدّ مبالغة من رحمن . وتفسير ذلك أنّ لفظ الجلالة « الله » هو اسم الله تعالى الأعظم ، بين التّسعة والتّسعين اسماً من أسمائه الحُسْنى جلّ وعلا . ومعروفٌ أنّ لفظ الجلالة « الله » هو الاسم ، وأنّ ما عداه من أسماء إنّما هي صفات لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد . وإنّ الابتداء بهذا الاسم الأعظم ، من الجائز أن يوحي بأن ما يليه من أسماء في نسق ، ستتّجه من الأخصّ إلى الخاصّ إلى الأقلّ خصوصيّة . وبتدبّر هذه الأسماء الثلاثة الحُسْنى ، الله ، الرّحمن ، الرّحيم ، من الجائز أن نتبيّن هذا التّدرّج المتّجه هذه الوجهة التي ذكرنا . وهنا نتبيّن أنّ لفظ الجلالة « الله » اسمٌ

(١) من هؤلاء الجوهري . وانظر اللسان « رحم » وانظر البحر المحيط ١٦/١ ، ١٧ وتفسير القرطبي ص ٩١ .

(٢) انظر البحر المحيط ١٧/١ .

ينفرد به جلّ وعلا . كما نتبيّن في الاسم الآخر « الرّحمن » صفةً خاصّةً به جلّ وعلا . حيث إنّ هذا الاسم ، الذي هو في حقيقته صفة ، يوحي بصفةٍ من صفات الذّات العليّة ، لا يصحّ أن يتّصف بها أيّ مخلوق ، وبالتالي لا يصحّ أن يتسمّى بها .

ومن هنا يتضح أن في لفظ الرحمن ، من الرحمة ، ما يليق به جلّ وعلا وحده لا شريك له . ومن الأدلة على هذا النوع المعيّن من الرحمة الخاصّ به جل وعلا ، هو أن آية سورة الإسراء جمعت بين هذين الاسمين العظيمين له جل وعلا ، وإنْ شئت قلت إنها جمعت بين عظيم الأسماء وعظيم الصفات . قال تعالى (١) : **« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا »**

فإذا تحولنا إلى الاسم الثالث ، ذي صفة الرحمة كذلك « الرحيم » استطعنا أن نفهم منه نوعاً خاصاً من رحمة الله تعالى بخلقه ، خاصة وأننا بصدد إحدى صيغ المبالغة « فعيل » (٢) ومن المفهوم بداهة ، في ضوء هذا التدرج المنطقيّ للمعاني ، أنّ لفظ الرحمن ، أشد مبالغة من الرحيم ، وقد عبر العلماء عن ذلك بالقول مثلاً (٣) : « والله الرحمن الرحيم » بنيت الصفة الأولى على فعلان ، لأنّ معناه الكثرة ، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء ، وهو أرحم الراحمين فأمّا الرحيم فإنما ذُكِر بعد الرحمن ، لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل ، والرحيم قد يكون لغيره . قال الفارسيّ : إنما قيل : بسم الله الرحمن الرحيم ، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به

---

(١) سورة الاسراء ١١٠ .

(٢) انظر البحر المحيط ١/١٥ .

(٣) اللسان « رحم » وانظر تفسير أسماء الله الحسنى ص ٢٨ .

في قوله تعالى : « وكان بالمؤمنين رحيما » . كما قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . ثم قال : « خلق الإنسان من علق » . فخصّ بعد أن عمّ ، لما في الإنسان من وجوه الصناعة ، ووجوه الحكمة . ونحوه كثير . وقد اقتبس أبو حيّان في البحر المحيط (١) رأياً لابن سيدة في الموضوع يقول : « والذي يظهر أن جهة المبالغة مختلفة ، فلذلك جمع بينهما . فلا يكون من باب التوكيد . فمبالغة فعلان ، مثل غضبان وسكران من حيث الامتلاء والغلبة . ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحالّ الرحمة . ولذلك لا يتعدى فعلان ويتعدى فعيل . تقول : زيدٌ رحيم المساكين . كما تعدّى فاعلا . قالوا : زيدٌ حفيظٌ علمك وعلم غيرك . حكاه ابن سيده عن العرب » .

وإذا كنا نرى أن لفظ الجلالة ، « الله » خاص بالمعبود بحقّ وحده لا شريك له وأن لفظ الرحمن وصفٌ خاص به جلّ وعلا ، فإن ممّا هو معمّق لحقيقة التدرج المعنوي وقيمته ، هو أن صفة الرحيم تستعمل لغيره عز وجل ، وربما كان لطيفاً أن نبيّن أن رب العزة قد خلع على حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم في القرآن المجيد اسمين من أسمائه جلّ وعلا ، أحدهما الرحيم . قال عز من قائل(٢) : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم » . وقد وصف الله تعالى في كتابه العزيز غيره ببعض أسمائه ، كما قال تعالى (٣) : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا » يقول ابن كثير في هذا الشأن (٤) : « والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمّى به غيره . ومنها ما لا يسمّى به غيره كاسم الله

(١) ١/١٧ .
(٢) سورة التوبة ١٢٨ .
(٣) سورة الانسان ٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٢١ .

والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك . فلهذا بدأ باسم الله ، ووصفه بالرحمن ، لأنه أخص وأعرف من الرحيم . لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء . فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص ، وهكذا يتبين أن الرحمن الرحيم ، اسمان مُشتقّان من الرحمة على وجه المبالغة . ورحمن أشد مبالغة من رحيم (١) وأن الرحمن لم يستعمل في غيره عز وجل . وأما قول بني حنيفة في مسيلمة الكذاب ، رحمن اليمامة ، فبابٌ من تعنتهم في كفرهم (٢) ويقول العلماء : إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى (٣) ولذلك قالوا في معنى الاسمين : ومعنى الرحمن عند أهل اللغة ذو الرحمة ، التي لا غاية بعدها في الرحمة ، لأن فعلان ، بناءٌ من أبنية المبالغة ، ورحيم ، فعيل ، بمعنى فاعل ، كما قالوا : سميع بمعنى سامع وقدير بمعنى قادر (٤) قال الأزهري : ولا يجوز أن يقال : رحمن إلا لله عز وجل . وفعلان من أبنية ما يبالغ في وصفه ، فالرحمن ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله » (٥) .

ومن اللطيف أن نسجّل ملحةً للزمخشري بشأن زيادة البناء لزيادة المعنى وقد أشار إليها في الكشّاف (٦) بالقول : « ومما طن على أذني من ملح العرب أنهم يسمّون مركباً من مراكبهم بالشّقدف ، وهو مركبٌ خفيفٌ ليس في ثقل محامل العراق . فقلت في طريق الطائف لرجلٍ منهم : ما اسم هذا المِحْمل؟

(١) تفسير ابن كثير ٢٠/١ .
(٢) الكشاف ٣٥/١ .
(٣) الكشاف ٣٤/١ .
(٤) اللسان « رحم » .
(٥) اللسان « رحم » .
(٦) ٣٤/١ .

أردت المحمل العراقي ، فقال : أليس ذاك اسمه الشّقدف ؟ قلت : بلى . فقال : هذا اسمه الشّقنداف ، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمّى » .

والرحمة : الرقة والتعطّف والمغفرة . وقوله تعالى في وصف القرآن : « **هدًى ورحمة لقوم يؤمنون** » ، أي فصلناه هادياً وذا رحمة (١) .

وقد استفاد فريقٌ من العلماء في تفسير معنى كل من الرحمن والرحيم من أثرٍ ينسب إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو حيّان في البحر المحيط (٢) : « وروى ابن مسعود وأبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الرحمن رحمن الدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة) وإذا صح هذا التفسير وجب المصير إليه . وقيل : الرحمن الذي رحم كافة خلقه ، بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم (٣) ، والرحيم خاص في رحمته لعباده المؤمنين ، بأن هداهم إلى الإيمان . وهو يثيبهم في الآخرة بالثواب الدائم الذي لا ينقطع (٤) وقد قال الزمخشري (٥) : فإن قلت : فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه ، والقياس التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم : فلانٌ عالم نحرير وشجاعٌ باسلٌ وجوادٌ فياض . قلت :

---

(١) انظر اللسان « رحم » .

(٢) ١/١٧ وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٠ فثمة اثر فى المعنى ذاته ينسب الى عيسى ابن مريم عليه السلام .

(٣) انظر مثلا البحر المحيط ١/١٧ .

(٤) تفسير اسماء الله الحسنى للزجاج ص ٢٨ وانظر البحر المحيط ١/١٧ .

(٥) الكشاف ١/٣٧ .

لمّا قال :

الرحمن ، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه الرحيم ، كالتتمة والرّديف ليتناول ما رقّ منها ولطف » .

« فإن قلت : ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ، ومعناها العطف والحنوّ ، ومنها الرّحم لانعطافها على ما فيها قلت : هو مجازٌ على إنعامه على عباده ، لأن الملك إذا عطف على رعيته ورقّ لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه ، كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه » . (١) .

(١) الكشاف ١/٣٦ .

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

الحمد والمدح أخوان (١) والحمد نقيض الذمّ . ويقال : حمدتُهُ على فعله . ومنه المحمدة ، خلاف المذمّة (٢) والحمد ، الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده (٣) وإذ قد يتعلق المدح بالجماد فتمدح جوهرة ولا يقال : تحمد (٤) ومن العلماء من ذهب إلى كون الحمد والشكر بمعنى واحد (٥) ولكن جمهور العلماء يرون أن بين الحمد والشكر نوعاً من فرق . يقول مثلاً ابن كثير في تفسيره (٦) : « اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدّية . والشكر لا يكون إلا على المتعدّية ، ويكون بالجنان(٧) واللسان ، والأركان ، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجّبا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعمّ ، الحمد أو الشكر ، على قولين . والتحقيق

---

(١) الكشاف ٣٧/١ .
(٢) اللسان « حمد » .
(٣) البحر المحيط ١٨/١ .
(٤) البحر المحيط ١٨/١ .
(٥) انظر البحر المحيط ١٨/١ وتفسير الطبرى ٤٦/١ واللسان « حمد »
(٦) ٢٢/١ .
(٧) الجنان : القلب

أن بينهما عموماً وخصوصاً . فالحمد أعمّ من الشكر ، من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية . تقول : حمدته لفروسيّته ، وحمدته لكرمه ، وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا بالقول . والشكر أعمّ من حيث ما يقعان عليه ، لأنه يكون بالقول ، والفعل ، والنية ، كما تقدّم . وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية . لا يقال : شكرته لفروسيته . وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إليّ . هذا حاصل ما حرّره بعض المتأخرين ، والله أعلم » .

ولاشك أنهذا تحريرٌ موفّق . وبهذا يتبين أن الحمد يكون باللسان وحده ، أما الشكر فيكون بالقلب واللسان والجوارح ، وعلى النعمة بخاصّة .

وإذا كان الحمد نقيضه الذمّ ، فإن الشكر نقيضه الكفران (١) ومما هو دليل على أن الحمد أعمّ من الشكر ، رغم تقاربهما في المعنى ، الحديث النبويّ الشريف : الحمد رأس الشكر . ما شكر الله عبدٌ لا يحمده . كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان . وإنما كان رأس الشكر ، لأنه فيه إظهار النعمة والإشادة بها ، ولأنه أعمّ منه ، فهو شكرٌ وزيادة . وفي حديث الدّعاء : سبحانك اللهم وبحمدك . أي وبحمدك أبتديء » (٢) .

والألف واللام في الحمد ، لاستغراق جميع أصناف الحمد (٣) ويقول أبو حيّان (٤) : « والحمد مصدر معرفٌ بأل . إما للعهد ، أي الحمد المعروف

---

(١) الكشاف ١/٣٨ .

(٢) اللسان « حمد » .

(٣) انظر البحر المحيط ١/١٨ وتفسير ابن كثير ١/٢٣ والقرطبى ص١١٦ وقد اضاف القرطبى : « فهو سبحانه يستحق الحمد باجمعه اذ له الاسماء الحسنى والصفات العلى » .

(٤) البحر المحيط ١/١٨ .

بينكم لله . أو لتعريف الماهيّة ، كالدينار خير من الدرهم . أيْ أيّ دينار كان ، فهو خير من أيّ درهم كان ، فيستلزم إذ ذاك الأحمدة كلها . أو لتعريف الجنس ، فيدل على استغراق الأحمدة كلها بالمطابقة » . وقد قال ابن جرير الطبريّ في تفسيره (١) : « الحمد لله ، الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما يرى من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم لذلك عليه ، ومع ما نبّههم عليه ، ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدّية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربّنا الحمد على ذلك كلّه ، أولاً وآخراً . »

وثمة العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تبين قيمة حمد الله تعالى وثواب الحامدين (٢) فمن حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدريّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا قال العبد : الحمد لله ، قال : صدق عبدي ، الحمد لي . وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها . . وروى ابن ماجة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال : الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ . وفي نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال : الحمد لله ، لكانت الحمد لله أفضل من ذلك . وروى

(١) ٤٦/١ .
(٢) الاحاديث من تفسير القرطبي ص ١١٤ ، ١١٥ .

ابن ماجة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا رب ، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضّلت بالملكين(١) ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، نصعدا إلى السماء فقالا : يا ربّنا ، إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها . قال الله — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدي . فقالا يارب ، إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : أكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها (٢) وروى مسلم عن أبي مالك الأشعريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطهور شطر الإيمان . والحمد لله تملأ الميزان . وسبحان الله والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض . وذكر الحديث (٣) .

وقد أجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من الحمد لله(٤) وقد قال أبو حيّان (٥) : « وقراءة الرفع أمكن في المعنى ، ولهذا أجمع عليها السبعة ، لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقرائه لله تعالى ، فيكون قد أخبر بأن الحمد مستقر لله تعالى ، أي حمده وحمد غيره . ومعنى اللام في لله الاستحقاق » ويقول الزمخشريّ (٦) معللاً لقراءة الرفع في « سلام » من قوله تعالى : « **قالوا سلاماً قال سلام** » رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه

---

(١) أعضل الامر : اشتد واستغلق · والمعضلات ، بتشديد الضاد ، الشدائد · وعضلت المراة والشاة اذا نشب ولدها فلم يسهل مخرجه ، بتشديد الضاد ايضا · تفسير القرطبى ص ١١٥ ·

(٢) وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٣ ·

(٣) تفسير القرطبى ١١٥ ·

(٤) تفسير القرطبى ص ١١٨ وانظر البحر المحيط ١/١٨ واللسان «حمد» فهذا رأس الفراء فى اجماع القراء على الرفع : والكشاف ١/٣٨ ·

(٥) البحر المحيط ١/١٨ ·

(٦) الكشاف ١/٣٩ ·

السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم ، لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم ، دون تجدده وحدوثه ، وأضاف بشأن قراءة الرفع « الحمد لله رب العالمين » والمعنى نحمد الله حمداً . ولذلك قيل : إياك نعبد » .

رب العالمين :

لفظ الرب له معاني ثلاثة ، فيكون بمعنى :

(أ) المالك . يقال : ربه يربه رباً ملكه . والعباد مربوبون لله عز وجل ، أي مملوكون .

(ب) السيد المطاع . قال الله تعالى « أما أحدكما فيسقي ربه خمرا » (١) أي سيّده .

(ج) المصلح . يقال : رب الشيء إذا أصلحه . وربّ والده والصّبيّ يربُّه رباً بمعنى رباه . والمطر يرب النبات والثّرى وينميه (٢) .

وقد يتصرف أيضاً معنى الرب في وجوه غير ذلك ، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة . فربنا جل ثناؤه السّيد الذي لا شبه له ولا مثل ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذي له الخلق والأمر (٣) وقد جاء في لسان العرب (٤) : « الرب : يطلق في اللغة على المالك

(١) سورة يوسف ٤١ .
(٢) انظر اللسان « ربب » .
(٣) تفسير الطبرى ٤٨/١ .
(٤) « ربب » .

والسيد والمدبر والمربي والقيّم والمنعم . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل . وإذا أطلق على غيره أضيف فقيل : رب الدار ورب الناقة (١) ورب : مصدر وصف به للمبالغة (٢) على أحد وجوه الوصف بالمصدر . أو اسم فاعل حذفت ألفه . فأصله رابّ ، كما قالوا : رجلٌ بارّ وبرّ (٣) واختلف في اشتقاقه فقيل : إنه مشتقٌ من التربية . فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربيهم . ومنه قوله تعالى (٤) « **وربائبكم اللاتي في حجوركم** » فسمّي بنت الزوجة ربيبة ، لتربية الزوج لها . فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل . وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات (٥) .

وإذا كان لفظ العالمين جمعاً لعالم ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جمع لا واحد له من لفظه (٦) وكان مأخوذاً من العَلَم والعلامة ، لأنه علامةٌ على موجوده ودليلٌ عليه . كما قال الزّجّاج (٧) ففي ضوء السياق نستطيع أن نفهم المعاني المختلفة للفظ العالمين ، وكأنه بذلك من المشترك اللفظي . لقد اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافاً كثيراً ، فقال قتادة : العالمون جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم (٨)

---

(١) انظر اللسان « ربب » والكشاف ٤٣/١ والبحر المحيط ١٩/١ وتفسير القرطبى ص ١١٩ وتفسير ابن كثير ٢٣/١ .

(٢) انظر الكشاف ٤٢/١ .

(٣) البحر المحيط ١٩/١ .

(٤) سورة النساء ٢٣ .

(٥) تفسير القرطبى ١١٩ .

(٦) تفسير الطبرى ٤٨/١ .

(٧) تفسير القرطبى ص ١٢١ وانظر اللسان « علم » .

(٨) تفسير القرطبى ص ١٢٠ .

وقيل : أهل كل زمان عالم ، قاله الحسين بن الفضل ، لقوله تعالى « أتأتون الذّكران من العالمين » أي من الناس (١) ومن البيّن أن لفظة العالمين في هذا السياق ، الذي يتحدث عن قوم لوطٍ عليه السلام تعني الذّكران فعلا . وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . ودليله قوله تعالى في سورة الفرقان : « ليكون للعالمين نذيرا » ولم يكن نذيراً للبهائم (٢) ومن البيّن أن لفظة العالمين في هذا السياق تعني الإنس والجن ، لأنه صلى الله عليه وسلم إنما بُعث لهذين النوعين من الخلق . وقد تحدثت سورتا الأحقاف والجن على وجه الخصوص ، عن الجن واستماعهم للقرآن الكريم ، يرتله المصطفى صلى الله عليه وسلم ترتيلا ، وتوليهم إلى قومهم مبشرين ومنذرين . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العالم عبارةٌ عمّن يعقل ، وهم أربعة أمم ، الإنس والجن والملائكة والشياطين (٣) ومن البيّن أن هذا الرأي يأخذ في الاعتبار الذين يصح أن يوجه إليهم الإنذار وينفعهم .

ونحن إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من سورة الفاتحة « « الحمد لله رب العالمين » نستطيع أن نتبين أنها تتحدث عن كل مخلوقات الله تعالى التي خلقها وقدرها وهيأها للقيام بوظائف معينة وسخرها ، مما يعتبر علامة بيّنة على رب العالمين وعلماً دالا على وجود الخالق الصانع الواحد ، كما قال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يُعْصى الإلـــه ... وكيف يجحـده الجـاحدُ
وفي كل شيء لــه آيــةٌ ... تــدلّ على أنّه واحــد (٤)

---

(١) تفسير القرطبى ـ ص ١٢٠ .

(٢) تفسير القرطبى ـ ص ١٢٠ .

(٣) تفسـير القرطبى ص ١٢٠ وابن كثير ٢٣/١ وأضـاف الاخير : « ولا يقال للبهائم عالم » .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٤/١ وانظر معانى أخرى للفظ عالم ص ٢٣ .

وفي ضوء ما سبق نستطيع أن نوافق القرطبي الذي قال في تفسيره (١) : « قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود . دليله قوله تعالى (٢) « **قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما** » ثم هو مأخوذٌ من العَلَم والعلامة ، لأنه يدل على موجده ، كذا قال الزّجّاج . وقد جمع لفظ العالمين ليشمل كل جنس مما سمّي به (٤) والعالم اسم بني على مثال فاعل ، كما قالوا خاتم وطابع ودانق (٣) ولا يجمع شيء على فاعل بالواو والنون إلا هذا (٥) وأل في العالمين لاستغراق الجنس (٦) ويقول الطبري في تفسيره (٧) : « والعالم اسمٌ لأصناف الأمم . وكل صنفٍ منها عالم . وأهل كل قرنٍ من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان . فالإنس عالم . وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان ، والجن عالم . وكذلك سائر أجناس الخلق ، كل جنس منها عالم زمانه ، ولذلك جمع فقيل : عالمون ، وواحده جمع ، لكون عالم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان . ومن ذلك قول العجّاج :

« فخندف هامة هذا العالم »

فجعلهم عالم زمانه . وهذا القول الذي قلناه قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهو معنى قول عامة المفسرين » .

---

(١) ص ١٢١ .
(٢) سورة الشعراء ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الكشاف ٤٣/١ .
(٤) اللسان « علم » بفتح التاء والياء والنون .
(٥) اللسان « علم » .
(٦) البحر المحيط ١٩/١ .
(٧) ٤٨/١ .

ونحن نود أن نردف هذه الدراسة ، التي كانت العناية فيها واضحة من الوجهة اللغوية والبيانية ، إلى تبيين الدروس التي يمكن أن تستفاد من الآية الكريمة « الحمد لله رب العالمين » وهي على النحو التالي :

١ – إن الآية الكريمة كلها : « الحمد لله رب العالمين » يصح أن يقال عنها إنها تجري مجرى المثل . كما أن صدرها « الحمد لله » يصح هو الآخر أن يجري مجرى المثل ، بل ينبغي أن يكون جزءاً لا يتجزأ من المعجم اللغوي لكل مسلم لله رب العالمين . وإذا صح اقتطاع صدر الآية الكريمة : « الحمد لله » فما أكثر ما يجري على لسان كل مسلم لله رب العالمين ، جزء آخر مُكَمِّل لهذا الصدر وهو القول : « والشكر لله » وبذلك يكون القول كاملا : الحمد لله والشكر لله ، شاملا لقمّتي الثناء على الله تعالى ، اللتين يعبّر عنهما بالحمد لله والشكر لله ، فقد عرفنا من قبل أنهما يعطيان معاً صورة كاملة لما ينبغي للعبد أن يقوم به دائماً وأبداً تجاه خالقه جل وعلا .

ونحن في قراءتنا للآية الكريمة كلها ، أو لصدرها ، بصدد دروس من أعظم الدروس القرآنية التي ينبغي على المسلم لله ربّ العالمين أن يعيها تمام الوعي ، وها هي ذي سورة الفاتحة ، تلقي على كل مسلم لله رب العالمين ، هذا الدرس الذي يعبّر المسلم بواسطته عن بعض ما يجب عليه تجاه خالقه ورازقه ومحييه ومميته ، وتجاه النعم الكثيرة التي أفاءها الله تعالى عليه ، والتي لا يستطيع الإنسان ، وإن حرص ، بنص القرآن الكريم ، أن يحصيها . وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحصي نعم الله تعالى عليه ، فكيف يستطيع أن يقوم بما يجب عليه إزاءها من شكر لله تعالى وثناء وحمد ؟

ومع ذلك فإن رب العزة البرّ الرحيم ، اللطيف الرؤوف بعباده ، يهديهم إلى سواء الصراط ، ويلقّن الإنسان بعض ما ينبغي عليه أن يقول من حمد

لله تعالى وحده لا شريك له ، لأنه هو المنعم المتفضل على الإنسان ، وهو الذي جعل بعض الناس لبعضهم سخرياً ، يستوي في ذلك حاكمهم ومحكومهم ، رفيعهم ووضيعهم ، وهو الذي سخر للإنسان كل ما في السماوات وما في الأرض ، فله عز وجل ينبغي أن يكون الحمد خالصاً .

ولا يقف الحمد عند الشكر باللسان ، بل ينبغي أن يترجم إلى عمل ، وأن يكون هذا العمل شاهد صدق على أن المسلم لله رب العالمين ، قد وعى الدرس القرآنيّ ، في كون الحمد إنما ينبغي أن يكون في كل صوره لله تعالى . ومن أوضح الميادين الّتي يتجلّى فيها الحمد لله رب العالمين على حقيقته ، ميدان العبادة في الإسلام ، الّتي تمتد كي تشمل كل ميادين العقيدة والسلوك والمعاملة . وبعبارة أخرى ، إن ميدان العبادة ، بمعناها الواسع في الإسلام ، ينبغي أن يتجلى فيه حمد الله تعالى وشكره على نعمه وآلائه . والمعروف أن كل عمل طيب يقوم به الإنسان ، وهو يريد به وجه ربه الأعلى ، يعتبر داخلا في مفهوم العبادة في الإسلام ، بما في ذلك لقمة الطعام الّتي يضعها المرء في فم زوجته ، وهو يريد بذلك إرضاء ربه الأعلى ، كما جاء في الحديث الصحيح . فكي يكون المرء حامداً لله تعالى ، ينبغي أن يريد بكل أقواله وأفعاله ، أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته ، وجه ربه الأعلى . وإذا تحقق بعون الله تعالى ذلك ، يكون ما يصدر من أعماق الإنسان قائلا : « الحمد لله رب العالمين » ، أو « الحمد لله » أو الحمد لله والشكر لله ، فيه الدليل الشاهد على صحة الفهم للقول ، وهو العمل الصالح الذي حث الإسلام الإنسان عليه دائماً وأبدا .

٢ ــ إذا كان بالإمكان أخذ درس من الآية الكريمة : « الحمد لله رب العالمين » أو من صدرها « الحمد لله » في وجوب شكر الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله ، فإن عجزها يمكن أن يؤخذ منه درس ذو شقين ، أو درسان عظيمان . أما الدرس الأول فيؤخذ من لفظة الرب . وأما الدرس الثاني فيؤخذ

من لفظة العالمين . وفي الإمكان أن يقال ابتداء عن هذين الدرسين العظيمين ، إن أحدهما يتعلق بالرب الواحد والإله الواحد والمعبود الواحد ، فعلى كل البشر ، وهم الذين كرمهم الله تعالى وحباهم بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة وحملهم في البر والبحر ، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، أن يعوا هذه الحقيقة جيداً ، فهم إخوةٌ من زاوية كون ربهم واحداً ، فيجب أن يترجموا هذه الحقيقة التي عرفوا إلى عملٍ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وبذلك تتحقق إحدى دعامتين تعتبران أهم الدعامات التي يقوم عليها الأمن والسلام في العالم . وهذه الدعامة يمكن أن يعبّر عنها كما قال العلاّمة أبو الحسن الندوي (١) وحدة الربوبية كما أن في الإمكان أن يقال إن ثاني الدرسين يتعلق بالأخوة الإنسانية أو وحدة البشرية ، لأن البشر جميعاً الذين تعنيهم لفظة العالمين ، إنما هم جميعاً مشتركون في الأب الواحد والأمّ الواحدة ، وبناءً على ذلك فلا مجال للتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد والأوطان والدماء والألسنة والألوان . إن كل هذه الأعراض ينبغي ألا تتلهّى بها البشرية عن الحقائق الأزلية ، من كونهم جميعاً مخلوقين لربٍ واحد ، من ذكر وأنثى ، فلا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

وهكذا يتبين أن الإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين . مرّة وهي الأساس ، لأن الرب واحد . ومرة ثانية لأن الأب واحد(٢) وإن هذه النظرة الإنسانية السامية الخالدة قد بينها الإسلام وعمقها ، وحث على التأدب والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ . إنه فيما يتصل بالرب الواحد

---

(١) الأركان الأربعة ص ٣٩ .

(٢) الأركان الأربعة ص ٣٩ .

والأصل الواحد يجيء قوله تعالى في سورة النساء (١) : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » وفيما يتصل بتبيين الحكمة من جعل الناس وهم أبناء الأب الواحد والأم الواحدة ، مختلفين في هيئة الشعوب والقبائل ، وتعيين المقياس الفصل في التفاضل . يقول عز من قائل (٢) : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير » وقد بينت هذه الآية الكريمة من سورة الرّوم أنّ اختلاف الألسنة والألوان من آيات الله تعالى . فلا ينبغي أن يكون مقياساً لرفع بعضٍ وخفض بعض . قال عز من قائل (٣) : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألونكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » إن هذه الحقائق ينبغي أن يعيها الخلق وأن يحسنوا التصرف والعمل وفق ذلك الوعي والعلم . وقد جاء في هذه المعاني قوله عز من قائل في سورة فاطر (٤) : « ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود . ومن النّاس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيزٌ غفور» إن على كل إنسان أن يعرف أصله القريب والبعيد على حدّ سواء . وقد قال عز من قائل في سورة الفرقان (٥) : « وهو الذي خلق من

(١) الآية ١ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) الآية ٢٢ .

(٤) الآية ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) الآية ٥٤ .

الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربّك قديرا » وفي سورة السّجدة جاء قوله تعالى (١) : « ذلك عالم الغيب والشّهادة العزيز الرّحيم الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » .

وإن واجب كل إنسان خصّه الله تعالى بشيء من فضله أن يتخذ من ذلك حافزاً له على مضاعفة شكره وحمده لله تعالى ، لا أن يتخذ من ذلك وسيلة للفرح والمرح والفخر وتصعير خدّه للناس . وقد جاء في سورة الزخرف (٢) قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربّك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدّنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً ورحمة ربّك خيرٌ ممّا يجمعون » .

وفي هذه المعاني الإنسانية النبيلة جاء قوله صلى الله عليه وسلم في حجّة الوداع (٣) : « إنّ الله قد أذهب عنكم عصبيّة الجاهليّة وفخرها بالآباء . وإنما هو مؤمنٌ تقيّ أو فاجر شقيّ . الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى » .

إن هذه المعاني الإنسانية النبيلة التي جاء بها الإسلام ، حينما تتفهمها البشرية وتحولها إلى عمل ، فإن الأمن والسلام بعون الله تعالى سيسودان العالم كله ، بدلاً من الخوف والهلع والجزع والقلق وغير ذلك من مظاهر الشقاء التي تعاني

---

(١) الآيات ٦ــ٩ .

(٢) الآية ٣٢ .

(٣) روى الحديث الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم .

منها الإنسانية اليوم ، وستظلّ تعاني ما دام أن هذه المعاني التي جاء بها الإسلام لا يراد لها أن تفهم أو لا يراد لها أن تتحول إلى عملٍ وواقع . وإن واجب المسلمين لله رب العالمين أن يبادروا هم أولاً إلى تطبيق هذه التعاليم الإسلامية الإنسانية السامية ، وأن يحرصوا على التمسك بها ، والدعوة إليها ، والحثّ عليها ، والذّبّ عنها . والله من وراء القصد . قال عز من قائل : « **الحمد لله رب العالمين** »


ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سبق لنا أن تحدّثنا عن هذين الاسمين العظيمين للذّات العليّة ، أثناء حديثنا عن البسملة : بسم الله الرّحمن الرّحيم . ونحن نودّ أن نتحدّث عن هذين الاسمين اللذين تتكوّن منهما الآية الكريمة : « الرّحمن الرّحيم » من زاوية العلاقة المعنوية ، بين الآية الكريمة وبين ما سبقها ولحق بها . وإنّ أول ما نودّ الحديث فيه هو أنّنا بشأن البسملة التي تتضمّن هذين الاسمين العظيمين للذّات العليّة : بسم الله الرّحمن الرّحيم ، سبق أن لاحظنا التدرّج المعنويّ والتّحوّل المنطقيّ من الاسم الأعظم للذّات العليّة ، إلى الاسم الذي يدلّ على صفة تحتاج لها المخلوقات دائماً وأبداً ، وهي صفة الرّحمة التي تنوّع التعبير عنها ، المتدرّج كذلك من عموم الرّحمة إلى خصوصها ، إثر التحوّل من خاصّ الاسم « الله » إلى خاصة الصّفة « الرّحمن » . ومعنى هذا أنّ هذه الأسماء الثّلاثة : الله الرّحمن الرّحيم ، يتمّ فيها التّحوّل من الأخصّ إلى الذي يليه في الخصوصيّة وهكذا .

فما الذي يلاحظ من هذه الزّاوية ذاتها حينما ننظر للآيتين الأوليين معاً من سورة الفاتحة « **الحمد لله ربّ العالمين . الرّحمن الرّحيم** » الذي يلاحظ هو أنّنا حالياً بصدد أربعة أسماء للذّات العليّة لا ثلاثة ، أمّا هذه الأربعة فتتكوّن من ذات الأسماء الثّلاثة السّابقة ، بزيادة الرّبّ ، أو ربّ العالمين . وما الذي يلاحظ على ترتيب هذه الأسماء الأربعة ؟ الذي يلاحظ أنّ « ربّ العالمين » جاء في التّرتيب ثانياً . ومعنى هذا أنّ أخصّ أسماء الذّات العليّة ،

وهو لفظ الجلالة « الله » جاء في موضعه أولاً . وأنّ « الرّحمن » و « الرّحيم » قد جاءا متلاصقين كالمرّة السّابقة ، وفي موضعهما السّابق ذاته ، أي في الموضعين الثالث والرّابع . وما الذي يمكن أن يقال في مجال تبيين الحكمة من هذا التّرتيب للأسماء ؟ حينما نضع هذه الأسماء الأربعة للذّات العليّة في نسق ، ووفق التّرتيب في الآيتين الكريمتين : الله ، ربّ العالمين ، الرّحمن ، الرّحيم ، يلاحظ أنّنا الآن بصدد نوعٍ آخر من التّدرّج المعنويّ غير بعيدٍ من سابقه . وتفسير ذلك هو أنّ لفظ الجلالة « الله » الذي هو الاسم الوحيد بين الأسماء الحسنى الأخرى التي كلّها صفات ، يوحي لمتدبّره ، بكلّ المعاني التي يمكن للمرء أن يفهمها من تدبّر أسماء الله تعالى الحُسْنى . فإذا تحوّلنا إلى الاسم التّالي في السّياق ، ربّ العالمين ، تبيّنّا أنّنا بصدد أولى صفات المدح للذّات العليّة ، وبتدبّرنا لهذه الصّفة المرتبطة بلفظ الرّبّ ، وهي بمعنى السّيّد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبود ، تَبيّن أنّها قادرةٌ على الإدلاء بالمعنيين المتقابلين اللذين يرتبطان في العادة بها ، وهما الترغيب والتّرهيب ، إيصال الخير وإيصال الشّرّ ، فلا رادّ لقضائه عزّ وجلّ . ولا معقّب لحكمه . وممّا يعمّق هذه المعاني المتقابلة لفظة العالمين من القول «ربّ العالمين» التي توحي بالصّفات المختلفة المتباينة لتلك المخلوقات التي لا يحيط بها علماً إلاّ خالقها ومدبّرُها جلّ وعلا . وكأنّنا الآن ، و نحن بصدد هذه الصّفة ، ربّ العالمين ، أمام تجاذب للأحاسيس والمشاعر والعواطف ، بين الرّجاء والخوف ، بين الرّغبة والرّهبة ، يحدث كل ذلك أمام أُولى الصّفات الثلاث في نسق ، بعد لفظ الجلالة « الله » .

وبما أنّ رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عذابه ، خاصّةً ونحن أمام السّورة الكريمة التي قسمها البرّ الرّحيم نصفين ، بينه وبين عباده ، لذا نتبيّن أنّ ذلك التّوزّع في العواطف بين التّرغيب والتّرهيب ،

ما لبث أن تحوّل في تدرّج معنويّ لطيف ، إلى التّرغيب الخالص ، بسبب الرّحمة الخالصة ، التي تتجلّى في كلّ من الرّحمن والرّحيم . وسبق أن لاحظنا أنّ لفظة الرّحمن قادرةٌ على أن تشمل كلّ الخلق ، وإنّ هذا العموم لصفة الرّحمة يتمشّى مع لفظة العالمين الواسعة المدى . كما لاحظنا أنّ لفظة الرّحيم قادرةٌ على الإيحاء بأنّها خاصّةٌ بالمؤمنين . ومعنى هذا أنّها من ناحية تتمشّى مع العموم الذي تفيده لفظة العالمين ، لأنّها تشمل الموحّدين المتّقين بطبيعة الحال ، كما أنّها من ناحية أخرى تحقّق التّدرّج في الخصوصيّات المعنويّة التي يوحي بها السّياق . فنحن بصدد خصوصٍ في الرّحمة بعد عموم . كما أنها من ناحيةٍ ثالثة ، في تحقيقها خصوص الرّحمة ، تشمل على وجه الخصوص ، الفئة الأولى المستفيدة من هذه الدّروس القرآنية ، تلك الفئة ، التي تستحق ، بفضل الله تعالى ، قبل سواها ، رحمة البرّ الرّحيم . وما أعذب هذا النّوع الخاصّ من الرّحمة ، حينما يخالط شغاف قلوب المسلمين لله ربّ العالمين المؤمنين المتّقين ، الحريصيين على ذلك ، العاملين من أجله ، الذين يتوزّعهم دائماً ، الرّجاء والخوف ، لأنّ المفروض في المؤمن أن يكون حذراً ، لأنّه يعلم أنّه إنّما يدخل الجنّة بعفو الله تعالى في المقام الأوّل ، بعد أن يتفضّل ربّ العزّة بقبول أعماله الصّالحة ، وقد جاء في سورة المؤمنون ما يفيد خوف المؤمنين المتّقين ألاّ يتقبّل الله تعالى أعمالهم الصّالحة . قال عزّ من قائل(١) :

« والذين يؤتون ما آتوْا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون » .

أما وقد أصبحت الرّحمة الخالصة الخاصة بالمؤمنين حقيقة واقعة ، فما أحرى هؤلاء المؤمنين المتّقين أن يزداد حمدهم لله تعالى وثناؤهم عليه بما هو أهله جلّ وعلا ، ويتحقّق ذلك في المقام الأوّل بفعل أوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، واجتناب ما نهى الله تعالى

---

(١) سورة المؤمنون ٦٠ .

عنه وهي حبيبه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وبهذا يتجلّى بعض مظاهر الإعجاز القرآنيّ في عرضه البديع العجيب المعجز للمعاني .

وإذا كنّا نظرنا إلى الآية الكريمة : « الرّحمن الرّحيم » من زاوية ما سبقها بحيث تجلّى التدرّج الرّائع في العرض المنطقيّ للمعاني ، فإنّا نودّ أن ننظر إلى الآيتين الكريمتين من زاوية ما يجيء بعدهما من آيتين كريمتين أو آيات كريمات . إنّ أوّل ما لاحظنا بشأن ذكر أسماء الله تعالى الحُسْنَى في نسق « الحمد لله ربّ العالمين . الرّحمن الرّحيم » هو التّدرّج من الألوهيّة المطلقة والسّيادة الأبديّة والملك الأزليّ ، وذلك يستفاد من لفظ الجلالة « الله » ومن القول « ربّ العالمين » إلى الرّحمة المطلقة في صورتيها العامّة والخاصّة . فإذا نظرنا إلى الآيتين التّاليتين بعد ذلك ، تبيّنّا أنّ أولى الآيتين الكريمتين تتمشّى مع الألوهية المطلقة والسّيادة الأبدية والملك الأزليّ . قال تعالى : « مالك يوم الدّين » وتبيّنّا أنّ ثانية الآيتين الكريمتين وما لحق بهما ممّا هو مكمّلٌ لمعناها ومبيّنٌ لمرماها ، تتمشّى مع الرّحمة المطلقة . قال تعالى : « إهدنا الصّراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالين » . يقول في هذا الشّأن أبو حيّان(١) : والتّرتيب القرآنيّ جاء في غاية الفصاحة ، لأنّه تعالى وصف نفسه بصفة الرّبوبيّة ، وصفة الرّحمة . ثمّ ذكر شيئين ، أحدهما ملكه يوم الجزاء ، والثّاني العبادة . فناسب الرّبوبيّة للملك والرّحمة العبادة . فكان الأوّل للأوّل ، والثّاني للثّاني » . ويقول القرطبيّ في تفسيره(٢) : « وصف نفسه تعالى بعد ربّ العالمين ، بأنّه الرّحمن الرّحيم ، لأنّه لمّا كان في اتّصافه بربّ العالمين ترهيب ، قرنه بالرّحمن الرّحيم ،

---

(١) البحر المحيط ٢٠/١ .

(٢) ص ١٢١ .

لما تضمّن من التّرغيب ، ليجمع في صفاته بين الرّهبة منه والرّغبة إليه ، فيكون أعون على طاعته وأمتع ، كما قال (تعالى) « نبّيء عبادي أنّي أنا الغفور الرّحيم . وأنّ عذابي هو العذاب الأليم »(١) وقال« غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول » (٢) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته أحد » .

---

(١) سورة الحجر ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) سورة غافر ٣ .

مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ

مالك يوم الدين

قرأ بعض القرّاء ملك يوم الدّين ، وقرأ آخرون مالك . وكلاهما صحيحٌ متواترٌ في السّبع(١) وقد رجّح كلا من القراءتين مرجّحون من حيث المعنى ، وكلتاهما صحيحة حسنة (٢) ويقول الزّمخشري (٣) . « وملك هو الاختيار ، لأنّه قراءة أهل الحرمين . ولقوله : لمن المُلْك اليوم . ولقوله : ملك النّاس . ولأنّ المِلْك (بكسر الميم) يعمّ . والمُلك (بضمّ الميم) يخصّ » . ونحن في حقيقة الأمر نودّ أن نبيّن رأياً عنّ لنا بشأن أمثال هذه التّرجيحات بين القراءات ، وهو رأي يوجّهُ إلينا نحن قبل سوانا ، فقد سبق لنا أن قمنا أحياناً بعمليّة التّرجيح هذه . أمّا هذا الرّأي فمفاده أنّه ما دام أنّ هذه القراءات المتواترة ، قرأ بها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم تبعاً لقراءة جبريل عليه السّلام ، أمين الله تعالى على وحيه ، فهل لنا من حقّ تجاه هذه القراءات يتجاوز التثبت مِنْ كون هذه القراءة أو تلك قد ثبت قراءة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بها ؟ ومن الجائز وراء ذلك أن نبيّن المعنى الذي تفيده هذه القراءة أو تلك . الذي يلوح هو أنّ حقّنا يقف عند التّثبّت من كون القراءة قد قرأ بها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . أمّا مسألة ترجيح قراءة ثابتة عن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٤ .
(٣) الكشاف ١/٤٥ .

المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على قراءة أخرى ثابتة هي الأخرى ، فالذي يبدو أنّ هذا ليس حقاً لنا نحن البشر .

وقد أحصى أبو حيّان (١) ثلاث عشرة قراءة ، بعضها راجعٌ إلى الملك ، (بضم الميم) وبعضها إلى الملك (بكسر الميم) . وقد قال الأخفش : يقال : مَلِك من الملك بضمّ الميم . ومالك من الملك بكسر الميم وفتحها . وزعموا أنّ ضمّ الميم لغةٌ في هذا المعنى (٢) وقد فصّل أبو حيّان الحديث بشأن هذه القراءات . وهذا ما قاله بشأن القراءات الثّلاث المشهورة(٣) : « قرأ مالك ، على وزن فاعل بالخفض ، عاصم ، والكسائيّ ، وخلف في اختياره ، ويعقوب. وهي قراءة العشرة إلاّ طلحة والزّبير . وقراءة كثير من الصّحابة ، منهم أبيّ وابن مسعود ، ومعاذ ، وابن عبّاس ، والتّابعين ، منهم قتادة والأعمش .

وقرأ مَلِك على وزن فعل بالخفض باقي السّبعة وزيد وأبو الدّرداء وابن عمر ، والمسوّر ، وكثير من الصّحابة والتّابعين .

وقرأ مَلْك ، على وزن سهل ، أبو هريرة ، وعاصم الجحدريّ ، ورواها الجعفيّ وعبد الوارث عن أبي عمرو ، وهي لغة بكر بن وائل . . » .

والملك في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ . قال الله تعالى (٤) « هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام » وفي الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمّى بملك الأملاك ، ولا مالك إلاّ الله . وفيهما عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : يقبض الله

(١) البحر المحيط ٢٠/١ ·
(٢) البحر المحيط ٢١/١ ·
(٣) البحر المحيط ٢٠/١ ·
(٤) سورة الحشر ٢٣ ·

الأرض ويطوي السّماء بيمينه ثمّ يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبّارون ؟ أين المتكبّرون ؟ وفي القرآن العظيم « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار(١) فأمّا تسمية غيره في الدّنيا بملك ، فعلى سبيل المجاز ، كما قال تعالى(٢) «إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً» «وكان وراءهم ملك(٣) « إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً »(٤) وفي الصحيحين: مثل الملوك على الأسرة(٥) وقال أصحاب المعاني : الملك النّافذ الأمر في مُلكه ، إذ ليس كلّ مالك ينْفُذُ أمرُه وتصرّفه فيما يملكه . فالملك أعمّ من المالك ، والله تعالى مالك المالكين كلّهم . والمُلاّك إنّما استفادوا التصرّف في أملاكهم من جهته تعالى(٦) .

وأصل الملك (بفتح الميم وسكون اللاّم) في الكلام ، الرّبط والشّدّ . يقال : ملكت العجين أملكه ملكاً إذا شددت عجنه(٧) وقال قيس بن الخطيم(٨) الشّاعر الأوسيّ الجاهلي :

---

(١) سورة غافر ١٦ ·
(٢) سورة البقرة ٢٤٧ ·
(٣) سورة الكهف ٧٩ ·
(٤) سورة المائدة ٢٠ ·
(٥) تفسير ابن كثير ١/٢٥ ·
(٦) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٣٠ ·
(٧) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٣٠ ·
(٨) البحر المحيط ١/٢٠ وانظر الاغانى (دار الكتب ٣/٣ وفيه يرى قائم وقبله

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر   لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

يريد لولا تفرق الدم وانتشاره ، وهذا هو معنى الشعاع بفتح الشين ، لأضاءها النفذ حتى تستبين · وأكمل المعنى فى البيت التالى فالذى يقف دون الطعنة يرى خلالها لاتساعها ما وراءها · وهذا ضرب من المبالغة ·

ملكت بها كفّي فأنهرت فتقها يرى قائماً من دونها ما وراءها

وإملاك المرأة من هذا ، إنّما هو ربطها بالزّوج(١)

وقال القرطبيّ (٢) : « إن وُصف سبحانه بأنّه ملك ، كان ذلك من صفات ذاته . وإن وُصف بأنّه مالك ، كان من صفات فعله » .

واليوم : عبارةٌ عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشّمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدّارين فيهما(٣) والدّين : الجزاء في الخير والشرّ(٤) والحساب والقضاء(٥) ومعاني هذه الثّلاثة متقاربة(٦) وجاء في لسان العرب(٧) : « والدّين الجزاء والمكافأة . وَدنْتُهُ بفعله دَيْنا (بفتح الدّال) جزيته . وقيل : الدَّين (بفتح الدّال) والدِّين (بكسر الدّال) الاسم . . ويوم الدّين يوم الجزاء . وفي المثل : كما تدين تدان ، أي كما تجازي تجازَى . أي تجازَى بِفِعْلِك وبِحَسَب ما عَمِلْت . وقيل : كما تفعل يفعل بك . . وقوله تعالى (٨) «إنّا لمدينون» أي مجزيّون محاسبون . ومنه الدّيّان في صفة الله عزّ وجلّ .وفي حديث سلمان إنّ الله ليدين للجمّاء من ذات القرن ، أي يقتصّ ويجزي . . والدّين الحساب .

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ٣٠ .

(٢) تفسير القرطبى ص ١٢٤ .

(٣) تفسير القرطبى ص ١٢٤ وانظر البحر المحيط ١/٢٢ .

(٤) صحيح البخارى ٦/٢٠ .

(٥) انظر البحر المحيط ١/٢١ وتفسير القرطبى ١٢٥ .

(٦) تفسير القرطبى ١٢٥ .

(٧) « دين » .

(٨) سورة الصافات ٥٣ .

ومنه قوله تعالى « مالك يوم الدين » وقيل : معناه مالك يوم الجزاء . وقوله تعالى(١) « ذلك الدّين القيّم » أي ذلك الحساب الصّحيح والعدد المستوي » . وفي الحديث : الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . أي حاسب نفسه بنفسه . كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا . وتأهّبوا للعرْض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم «يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»(٢) ويقول ابن كثير(٣) : « وتخصيص الملك بيوم الدّين لا ينفيه عمّا عداه ، لأنّه قد تقدّم الإخبار بأنّه ربّ العالمين ، وذلك عامّ في الدّنيا والآخرة . وإنّما أُضيف إلى يوم الدين لأنّه لا يدّعي أحدٌ هنالك شيئاً . ولا يتكلّم أحد إلاّ بإذنه . كما قال تعالى(٤) : « يوم يقوم الرّوح والملائكة صفاً لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرّحمن وقال صوابا » وقال تعالى (٥) « وخشعت الأصوات للرّحمن فلا تسمع إلاّ همساً » وقال تعالى(٦) « يوم يأت لا تكلّم نفسٌ إلاّ بإذنه فمنهم شقيّ وسعيد » .

ويقول أبو حيّان(٧) : « وفائدة تخصيص هذه الإضافة ، وإن كان الله تعالى مالك الأزمنة كلّها والأمكنة ومن حلّها والملك فيها . التّنبيه على عظم هذا اليوم بما يقع فيه من الأمور العظام ، والأهوال الجسام ، من قيامهم فيه لله تعالى ، والاستشفاع لتعجيل الحساب ، والفصل بين المحسن والمسيء

---

(١) سورة يوسف ٤٠ .
(٢) سورة الحاقة ١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/٢٤ .
(٤) سورة النبأ ٣٨ .
(٥) سورة طـه ١٠٨ .
(٦) سورة هود ١٠٥ .
(٧) البحر المحيط ١/٢٢ .

واستقرارها فيما وعدها الله تعالى به، أو على أنّه يومٌ يرجع فيه إلى الله جميع ما ملّكه لعباده وخوّلهم فيه ، ويزول فيه ملك كلّ مالك . قال تعالى(١) : « **وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** » « **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة**» (٢) ويقول (٣) : « ولمّا اتّصف تعالى بالرّحمة انبسط العبد ، وغلب عليه الرّجاء ، فنبّه بصفة الملك أو المالك ، ليكون من عمله على وجل ، وأنّ لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خيرٍ وشرّ » .

وسنحاول أن نبيّن في هيئة نقاط إلى بعض الدّروس التي يمكن أن تستفاد من الآية الكريمة : « مالك يوم الدّين » .

١ ـ الآية الكريمة تشير إلى يوم القيامة الذي ستتمّ فيه محاسبة الخلائق على كلّ ما صدر عنهم من خير أو شرّ فإثابتهم أو معاقبتهم . ومعروف أنّ الحياة الأخرى لا تنفصل عن الأولى في يقين المسلم لله ربّ العالمين ، لأنّ الحياة الأولى ليست سوى الطّريق الذي ينبغي أن يقطع ويتزوّد فيه للآخرة . ومِنْ هنا ينبغي على المسلم لله ربّ العالمين ، أن يُحْسن انتقاء الزّاد الذي يتزوّد به من أجل الآخرة ، ومن هنا كان الاهتمام باليوم الآخر جزءاً لا يتجزّأ من كيان المسلم لله ربّ العالمين ، الذي يخشى ربه ويخاف يوم الحساب . وقد جاء في أوّل سورة البقرة (٤) قوله تعالى : « **ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » .

---

(١) سورة مريم ٩٥ .

(٢) سورة الانعام ٩٤ .

(٣) البحر المحيط ٢٣/١ .

(٤) الآيات ١ـ٤ .

٢ ـ إنّ إيمان المسلم لله ربّ العالمين بيوم القيامة ، لا يقف عند الإيمان بوجود ذلك اليوم ، إنّما يشمل كلّ متعلّقاته التي وصلت عن طريق القرآن الكريم والحديث النبوي الشّريف . وفي مقدّمة هذه المتعلّقات الإيمان المطلق بأنّ ربّ العزّة وحده لا شريك له هو الملك الحقيقي في ذلك اليوم العصيب ، وهو المالك لكلّ أمور ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود . وإنّ ربّ العزّة ليلقّن المسلم لله ربّ العالمين في هذه الآية الكريمة ما يقول بشأن الحياة الأخرى ، التي هي جزءٌ لا يمكن أن ينفصل بحالٍ من الأحوال من أعماق المسلم ويقينه .

٣ ـ إنّ حديث هذه الآية الكريمة : « **مالك يوم الدين** » عن الحياة الأخرى خالصاً ، إثر حديث الآيتين الكريمتين السّابقتين عن الحياة الأولى غالباً ، يكمل به ما ينبغي أن يعيه جيّداً كلّ مسلم لله ربّ العالمين ، مِنْ كون الحياتين متّصلتين في حقيقتهما ، لأنّ الفاصل بينهما وهو الموت آتٍ لا محالة ، وستذوقه كلّ نفس . وبهذا يتبيّن أنّ الآية الكريمة مكملةٌ لما ينبغي أن يفهمه المسلم ويعيه ، ممّا له أكبر الأثر في حياته الأولى والثّانية ، باعتبار الإيمان بالحياة الأخرى خادماً لها ، وهي التي فيها الجزاء ، وللحياة الأولى ، وهي التي فيها العمل . ولا يكون الجزاء إلاّ من جنس العمل تماماً كما لا يكون الثّمر والشّجر إلاّ من جنس البذور .

ولو أنّنا نظرنا إلى الآية الكريمة هذه ، التي تتحدّث عن يوم القيامة ، بالقياس إلى الآيتين الكريمتين السّابقتين ، والمعروف أنّ هذه الآيات الكريمة تشكّل القسم الذي أشار الحديث القدسيّ إلى أنّه خاصٌّ بالله جلّ وعلا ، لتبيّنّا ، إضافة إلى الشّمول الذي تتّسم به الآيات في جمعها بين الحياتين ، الأولى والثانية في نسق ، أنّ للآية الثالثة حظّها الموفور من المعاني التي تتضمّنها الآيتان الأوليان اللّتان تتحدّثان في المقام الأوّل عن الحياة الأولى . وتفسير ذلك أنّ الآية الكريمة الأولى ، بعد تقريرها أنّ الحمد لله ، تشير إلى شمول

نعم الله تعالى وآلائه ، وهي نعم وآلاء تغطّي الحياة الأولى وتشمل الحياة الثانية ، في حقّ المسلم لله ربّ العالمين على وجه الخصوص ، الذي تشمله نعم الله تعالى وآلاؤه في ذلك الموقف العصيب ، في هيئة المظاهر المتعدّدة لرحمة الله تعالى البرّ الرّحيم بعباده . وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة الثّانية . وهكذا يتبيّن أنّ بين الآيات الكريمات اشتراكاً في المعنى أو ترابطاً معنوياً ، وقد تبيّن في العرض المتدرّج الشّامل للمعاني ، مراعاته الدّقيقة ، ليس للتّرتيب الزّمنيّ فقط ، وإنّما لترتيب جزئيّات المعاني داخليّاً ، وفق ترتيب ظهورها وظهور الحاجة إليها ، من نعمٍ وآلاء في الدّنيا لا تُحْصَى ، إلى رحمة عامّةٍ بالخلائق ، فرحمة خاصةٍ بالمؤمنين . وللنّعم والآلاء والرّحمة قيمتها في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، ولكنّ الرّحمة بالذّات هي الّتي تحتاج إليها الخلائق قبل غيرها ، وقد جاء الحديث في السيّاق عن الرّحمة ، قريباً في المكان والشّكل من الحديث عن اليوم الآخر ، ممّا هو معمّقٌ لمضمون الرّحمة الّتي يفتقر إليها الخلائق آنذاك أشدّ افتقار ، وممّا هو معمّق لحاجة الخلائق آنذاك للرّحمة ، وموضّحٌ للدّور البليغ الذي تقوم به الآية الثّانية : «الرّحمن الرّحيم» بسبب منزلتها بين الآيتين اللّتين يغلب على أولاهما الارتباط بالحياة الأولى ، بينما ترتبط الآية التّالية بالحياة الأخرى ، هو أنّ لفظة « الرّحمن » يكثر ورودها هي بالذّات ، في المواطن من القرآن الكريم الّتي يكون فيها حال الخلائق عصيباً ، وبالتّالي هم في أمسّ الحاجة إلى الرّحمة . ومن ذلك قوله تعالى(١) « **وخشعت الأصوات للرّحمن فلا تسمع إلاّ همساً** » وقوله تعالى (٢) « **قالت إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً** » وقوله تعالى(٣) « **يا أبت إنّي أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرّحمن فتكون للشّيطان**

---

(١) سورة طه ١٠٨ .
(٢) سورة مريم ١٨ .
(٣) سورة مريم ٤٥ .

وليّاً » وقوله تعالى (١) : « ثمّ لننزعن من كلّ شيعة أيُّهم أشدّ على الرّحمن عتيّاً » وقوله تعالى (٢) : « لا يملكون الشّفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرّحمن عهداً » وقوله تعالى(٣) : «إن كلّ من في السماوات والأرض إلاّ آتي الرّحمن عبداً » وقوله تعالى(٤) : « يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلاّ من أذن له الرّحمن ورضي له قولا » وقوله تعالى (٥) : « الملك يومئذ الحقّ للرّحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً » وقوله تعالى(٦) : « هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون» وقوله تعالى(٧) : « أمّنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن» وقوله تعالى(٨) : « لا يتكلّمون إلاّ مَن أذن له الرّحمن وقال صواباً » .

إنّ العباد أمس الخلق حاجة إلى رحمة البرّ الرّحيم ، حاجتهم إلى نعمه جلّ وعلا وآلائه . وقد شملت الآيات الكريمات الثّلاث تلك الحاجة في الدّنيا والآخرة . قال تعالى : « الحمد لله ربّ العالمين . الرّحمن الرّحيم . مالك يوم الدين » .

---

(١) سورة مريم ٦٩ .
(٢) سورة مريم ٨٧ .
(٣) سورة مريم ٩٣ .
(٤) سورة طه ١٠٩ .
(٥) سورة الفرقان ٢٦ .
(٦) سورة يس ٥٢ .
(٧) سورة الملك ٢٠ .
(٨) سورة النبأ ٣٨ .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينْ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

ثمّة مجموعة من الأمور والدّروس التي يمكن أن تلاحظ بشأن الآية الكريمة وهي على النّحو التّالي .

١ ــ بعد أن كان الحديث في الآيات السّابقة مستعملاً ضمير الغائب ، إذا هو يتحوّل مستعملا ضمير المخاطب . ويمكن أن يقال في هذا الصّدد ، أنّنا إزاء هذا الانتقال من ضمير إلى آخر ، وهو ما يسمّى في البلاغة بالالتفات ، بصدد نوع من التفنّن في القول والتّنويع في التّعبير والمعروف أنّ هذا النّوع من التّعبير قادرٌ على شدّ انتباه السّامع وتجديد نشاطه لمتابعة الحديث . ويلاحظ أنّنا بصدد نوعٍ من الالتفات يتمّ فيه التّحوّل من حالٍ للضّمير عاديّة ، هي حال الضّمير الغائب ، الذي يفهم من القول : « الحمد لله ربّ العالمين ، الرّحمن الرّحيم ، مالك يوم الدّين » إلى حال أُخرى للضّمير قويّة ، هي حال الضّمير المخاطب . ولا ننسى أنّ أهمّ شروط الالتفات ، وهو كون العائد عليه الضّمير واحداً ، متوفر ، في السّياق الذي نحن بصدده . والمعروف أن ثمّة درجات ثلاثاً للضّمير تتّجه نحو القوّة باضطراد ، وهي على النّحو التّالي ، الغائب ، المخاطب ، المتكلّم .

ونحن إذا نظرنا إلى الالتفات الذي نحن بصدده استطعنا أن نفهم العديد من الفوائد الأخرى والمعاني الثانوية . وأوّل ما يمكن أن يلاحظ هنا تقديم اسم الضّمير إيّاك ، دليلاً على الاختصاص وكونه جلّ وعلا هو وحده المعبود بحقّ . وما قيل عن العبادة يقال عن الاستعانة في القول : « وإيّاك

نستعين » وإنّ الالتفات من ضمير للغائب إلى ضمير للمخاطب ، كأنّه يفيد أنّ المسلم لله ربّ العالمين ، الذي يرتّل هذه الآية الكريمة ، قد ارتفعت منزلته ، وسمت مكانته ، بسبب امتثاله لأوامر الله تعالى ربّ العالمين الرّحمن الرّحيم ، واجتنابه لنواهيه عزّ وجلّ الكبير المتعال ، وكأنه قد أصبح قريباً من الحضرة الرّبّانيّة ، الّتي يلقّن المسلم في السّورة الكريمة مستقبلاً ، كيفية الدّعاء للوصول إلى ذلك ، وبسبب ذلك القرب الذي انتهى إليه لإيمانه وعمله بما علم وتقواه ، أصبح أهلاً لأن يخاطب ربّ العزّة وقد اقترب من حضرته جلّ وعلا ، في الطّريقة الّتي تلقّنه إياها الآية الكريمة : « **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** »

٢ — ونحن إذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية ما سبقها من آيات ، وبخاصّة الآية الثّالثة في السّورة الكريمة : « **مالك يوم الدّين** » فإنّا نتبيّن أنّ بينهما علاقةً متينةً جدّاً ، بحيث إنّا نُحِسّ بأنّ صدر الآية الكريمة يأخذ بِحُجْزَةِ عجز الآية السّابقة . وتفسير ذلك أنّ الآية الكريمة السّابقة : « **مالك يوم الدّين** » تتحدّث عن يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . وهذا معناه أنّ أهمّ القضايا الّتي ينبغي أن يهتمّ لها كلُّ إنسانٍ في حياته الدّنيا ، باعتبار أنّ ثمّة بعثاً وحساباً ، ثواباً وعقاباً ، هو جانب العقيدة والدّين والعبادة . ومن أوضح الأدلّة على أنّ جانب الدّين ينبغي أن يكون مقدّماً على جانب الدّنيا ، هو أنّ مفهوم العبادة في الإسلام ، يحيل أعمال الإنسان الصّالحة إلى عبادة مكملةٍ لأركان الإسلام الرّئيسيّة ، بحيث أنّ كلّ عملٍ طيّب يقوم به المرء وهو يريد وجه ربّه الأعلى ، بما في ذلك استمتاعه بما أحلّ الله تعالى له دون إسراف ، يعتبر داخلاً في مفهوم العبادة . ومن هنا يتبيّن أنّ الدّين هو المهمّ في مجال الفصل نظريّاً بين الدّين والدّنيا ، لأنّ مثل هذا الفصل بين الدّين والدّنيا ، ليس موجوداً

ولا معروفاً في الإسلام ، الذي يعتبر الحياة الدّنيا طريقاً موصلاً إلى الآخرة ، كي ينتفع الإنسان في ذلك المستقرّ من طبيعة الزّاد التي تزوّد بها في الحياة الدّنيا وكميّتها . أما وقد تبيّن أنّ الدّين والعقيدة والعبادة ، هي الأمور المهمّة بالنّسبة للمسلم لله ربّ العالمين ، فإنّا نودّ أن ندوّن الآيات الكريمة الأربع ، كي يتبيّن حظّ الآخرة والعبادة الموفور . قال تعالى : « **الحمد لله ربّ العالمين. الرّحمن الرّحيم ، مالك يوم الدين . إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** » إنّ العناية بالعبادة تأتي في صدر الآية الكريمة ، قريباً من عجز السّابقة التي تتحدّث عن يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .

٣ ـ إذا كان الدّين مقدّماً على الدّنيا في قوله تعالى : « **إيّاك نعبد** » لأنّ ذلك هو المهمّ ، ولأنّ التّرابط بين الآيتين الكريمتين يبدو أشدّ وضوحاً ، فإنّ عجز الآية الكريمة يُعْطي لكلٍّ من الدّين والدّنيا نصيبهما . قال تعالى : « **وإيّاك نستعين** » لأنّ الاستعانة بالله تعالى تكون على أُمور الدّين والدّنيا معاً . وسبق أن لاحظنا بشأن الآيات السّابقة أنّ الدّين كذلك هو المهمّ ، وأنّ يوم القيامة هو الذي ينبغي للمسلم لله ربّ العالمين أن يأخذه في الاعتبار جيّداً . قال تعالى : « **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** » .

٤ ـ جمعت الآية الكريمة : « **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** » بين العبادة وبين طلب الاستعانة من الله تعالى على أُمور الدّين والدّنيا ، بين الهدف الذي خُلِق من أجله الإنسان ، وهو عبادة الله تعالى ، كما قال عزّ من قائل(١) : « **وما خلقت الإنس والجنّ إلاّ ليعبدون** » ولا شكّ أنّ العبادة هي الأمر المهمّ ـ وبين الوسيلة التي يتمّ بها الحصول على المطلوب من خيري الدّنيا والآخرة . ولا شكّ أنّ العناية بالهدف والحرص على بلوغه هو الأهمّ ،

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

ولذلك تقدّمت الإشارة إليه أوّلاً وذلك في القول : « إيّاك نعبد » بينما تأخّرت الإشارة المتضمّنة طلب العون منه جلّ وعلا ، على الوصول إلى ذلك الهدف النّبيل والغاية السّامية . وقد جاء في تفسير ابن كثير(١) : « وإنّما قدّم إيّاك نعبد ، على ، وإيّاك نستعين ، لأنّ العبادة له هي المقصودة . والاستعانة وسيلة إليها . والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهمّ فالأهمّ . والله أعلم » .

٥ ـ إنّنا بصدد درسين عظيمين في هذه الآية الكريمة ، يلقّننا ربّ العزّة إيّاهما . أمّا الأوّل فهو أنّ المخصوص بالعبادة ، هو الله تعالى وحده لا شريك له . ونحن إذا تدبّرنا الآيات الكريمة السّابقة ، تبيّنّا أنّ مَنْ تلك الصّفات العظام خاصّة به وحده دون سواه ، ينبغي أن يختصّ وحده لا شريك له بالعبادة وبطلب العون .

وإنّ تخصيص العبادة لله وحده لا شريك له ، إنّما هو في مقابل إشراك كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم ، في العبادة مع الله تعالى سواه ، على الرّغم من علمهم بأنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو الخالق الرّازق المدبّر المحيي المميت ، وأنّ الآلهة التي يعبدون من دون الله تعالى ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ، فضلاً عن غيرهم ، ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً . ولكنّه عمى البصيرة والعياذ بالله .

وإنّ الدّرس القرآنيّ الأوّل في الآية الكريمة ليهدف إلى إزالة الغشاوة عن الأعين ، والصّدأ عن القلوب ، والصّمم عن الآذان : « إيّاك نعبد » فالله جلّ وعلا هو الذي ينبغي أن يعبد وحده لا شريك له ، وإنّ واجب العباد أجمعين ، أن يعوا هذه الحقيقة جيداً ، وأن يترجموها إلى عمل . ولا شك

---

(١) ٢٦/١ .

أننا بصدد درسٍ قرآنيّ عظيم ، ليت الإنسانية تنتفع به . إذ المعروف أن من أسباب الشقاء الذي تعانيه الإنسانية اليوم ، هو اتخاذ الأهواء آلهة تعبد من دون الله تعالى ، من شغفٍ بتكديس القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، عن طريق الحلال أو الحرام ، ومن حبٍ لاقتناء الخيل المسوّمة والأنعام وما في حكمها والحرث . ومن فتنة بالجاه والمنصب والسُّلطة والزينة ، ومن تفاخر بحطام الدنيا ، إلى غير ذلك من مظاهر النعيم الذي مصيره الزوال ، والذي يعتبره البعيدون عن معرفة الصراط المستقيم ، غاية المنى ونهاية المطاف .

إن الناس لو كانوا يعبدون الله تعالى وحده لا شريك له ، وترجموا تلك العبادة إلى عملٍ صالح مبنيّ على الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد ، لتحقّق لهم قوله تعالى في محكم كتابه (١) : « **من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » . وإنّ مقدار الشقاء الذي تعاني منه البشرية اليوم وكل يوم ، هو بمقدار الابتعاد من الله تعالى . وتبعاً لإقبال البشرية على الله تعالى مستقبلاً أو انصرافها عنه ، يكون حظها من إقبال السعادة عليها أو انصرافها عنها ، كلاً أو جزءاً .

وإن الدرس القرآنيّ الثاني في الآية الكريمة : «وإياك نستعين» ليتعلق تقرير الحقيقة التي ينبغي أن يعيها كلّ مخلوق وهي أنه لا حول ولا قوة للإنسان إلاّ بالله تعالى . ما أجمل هذا الدرس العظيم الذي تلقيه علينا الآية الكريمة التي ترشدنا إلى أنه لا يليق بالمسلم لله ربّ العالمين أن يغفل عن بارئه طرفة عين ، في كل شئونه الدينية والدنيوية وقد قيل :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى   فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

ولا شك أن هذه الدروس القرآنية العظيمة ، قد حذقها المسلمون المتقون المجاهدون . الذين كانت لهم الكلمة الأولى في الدنيا ، فقد كانوا يعبدون الله تعالى حق العبادة ، ويريدون بكل أعمالهم الصالحة وجه ربهم الأعلى . وبهذا كله هم تحولوا إلى طاقة جبارة هائلة ، تجمع بين الاستعانة بالله تعالى والاعتماد والتوكل عليه ، في كل أمورها الصغيرة والكبيرة ، الحقيرة والجليلة ، وبين تحويلها كل ما من الله تعالى به عليها إلى طاقة مسخرة لخدمة الدين الذي رضي الله تعالى لعباده . وبسبب اعتماد المسلمين الكلي على الله تعالى في كل ما يأتون من أعمال ، وبسبب توكلهم على الله تعالى حق التوكل ، ورضاهم عن كل مايقدر لهم من نتائج ، كانوا منسجمين داخلياً مع هذا العالم الخارجي ، لأن القرآن الكريم علمهم بأن ما أصابهم من حسنة فمن الله ، وما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم ، ولهذا هم في توكلهم على الله تعالى يفهمون أن كل ما يقدر لهم ، إنما هو بعلم الله تعالى وإرادته ، ولذلك هم راضون سعداء بشأن كل ما يأتون ويدعون .

وفي سبيل تبيين بعض جوانب الروعة في هذا الدرس القرآني ، الذي ينبغي للمسلم لله رب العالمين أن يطبقه كاملاً في استعانته بالله تعالى في كل أموره ، وعدم غفلته عن بارئه طرفة عين ، سائلاً الله تعالى جلت قدرته ، كما علمه رسوله الكريم ، ألا يكله إلى نفسه طرفة عين ، في إمكاننا أن نتدبر الدعاء النبوي الشريف ، وقد فعلت ثقيف به صلى الله عليه وسلم ما فعلت ، من رد غير كريم ، وإغراء به صلى الله عليه وسلم للسفهاء لئيم . لقد دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم ربه قائلا (١) : «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين**

(١) السيرة النبوية ٢/ ٢٩ .

وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلي بعيد يتجهّمني أم إلي عدوّ ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، مِنْ أن تنزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك . لك العتبى (١) حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » . إن دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم ربه في ذلك الظرف العصيب ، يختم بالقول : « ولا حول ولا قوة إلا بك » وهو ولا شك تطبيق عمليّ للدرس القرآني في الآية الكريمة من سورة الفاتحة التي نزلت في وقت مبكّر من الدعوة الإسلامية بعد سورة المدّثر .

يقول ابن كثير في تفسيره (٢) : « وقدّم المفعول وهو إيّاك وكرّر ، للاهتمام والحصر ، أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك . وهذا هو كمال الطاعة . والدين كلّه يرجع إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سرّ القرآن ، وسرّها هذه الكلمة : إياك نعبد وإياك نستعين . فالأول تبرؤٌ من الشرك . والثاني تبرؤٌ من الحول والقوة وتفويض لله عز وجل وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى (٣) : « فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافلٍ عمّا تعملون » ؛ « قل هو الرّحمن آمنّا به وعليه توكّلنا» (٤) ؛ « ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » (٥) وكذلك هذه الآية الكريمة . « إياك نعبد وإياك نستعين »ويقول أبو الحسن النّدوي (٦) : « وما

---

(١) العتبى : الرضى ·
(٢) ٢٥/١ ·
(٣) سورة هود ١٢٣ ·
(٤) سورة الملك ٢٩ ·
(٥) سورة المزمل ٩ ·
(٦) الاركان الاربعة ص ٤٠ ·

الحياة إلا عبادة واستعانة . وبهما يتصل الإنسان بالإنسان ، والضعيف بالقوي ، والفقير بالغنيّ ، والمحكوم بالحاكم ، والعابد بالمعبود ، فإذا جرّدتا وأفردتا لله تعالى ، فكّت السلاسل والأغلال ، وحطّمت الأوثان والأصنام . وبطل الشّرك ، وزالت الفتنة ، وكان الدين كله لله . أعظم إعلان يعلنه مسلم وأكبر تعهُّدٍ يتعهّده . فلينظر ما يقول ، وليكن على نفسه حسيباً رقيباً . فكلّ ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة ، إمّا يدعوه لخضوعٍ واستكانةٍ ، وإمّا يدعوه لسؤالٍ واستعانة . وقد كفر بهما جميعاً ، وثار على كلّ من تزعّمهما أو تظاهر بهما » .

٦ – في التعبير الكريم الذي يلقّننا رب العزة إيّاه تجيء صيغة جماعة المتكلمين وليس صيغة المفرد « إياك نعبد وإياك نستعين » ممّا يمكن أن يفهم منه قيمة الجماعة في الإسلام والعمل على تقويتها وجعل الأخوّة الإسلامية حقيقة واقعة ، عن طريق التعاون على البرّ والتقوى . « إن المسلم لله رب العالمين كثيراً ما يردد هذه السورة الكريمة وحيداً ، ولكنه في حقيقة الأمر لا ينسي إخوانه المسلمين ، لذلك هو يدعو لهم ولنفسه بخيري الدنيا والآخرة . هو إن كان بجسده وحيداً ، فإنه بمشاعره واحاسيسه وعواطفه يحب ان يكون كثيراً لأنه يتمنّى لكل أخٍ له في الإسلام ، ما يتمناه لنفسه ، وها هوذا يدعو الله تعالى كل يوم كرّات ومرّات ، له ولإخوانه المسلمين بكل خير وفلاح في الدنيا والآخرة ، ويكفي أن يعرف أنّ كلّ مسلم يرتّل هذه السورة الكريمة كلّ يومٍ سبع عشرة مرّة على أقلّ تقدير .

وإن هذه الصيغة الجماعية في الدعاء ، لتشي بقيمة الوحدة الإسلامية ، وبكون المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسّهر والحمّى ، وبكون المسلمين كالبناء المرصوص يشدّ بعضه بعضاً . وفي الوقت الذي يدعونا الإسلام إلى الاتحاد والتعاون على البرّ والتقوى ، لأن المؤمنين

إخوة ، هو يحذّرنا من كل عوامل التفكك واختلاف الكلمة . قال تعالى (١) : «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » وإن هذه الروح الجماعية التي تستفاد من هذا الدرس القرآنيّ لتذكرنا بحرص الإسلام على إظهار هذه الروح الجماعية الإسلامية أو الأمة الإسلامية ، ويتجلى ذلك في العديد من الميادين ، ويكفي أن يقال إن الإسلام قدّم صلاة الجماعة في المسجد على صلاة الإنسان في بيته ومكانه بخمس وعشرين درجة أو سبعٍ وعشرين درجة . وهناك صلاة الجمعة وصلاة العيدين إلى غير ذلك من صلوات جامعة يتوقع أن يجتمع أثناءها أعدادٌ كبيرة من صالحي الأمة ومتّقيها ، الذين يتجهون إلى الله تعالى بقلوب خاشعة ونفوس ضارعة وعيون دامعة ، وكل ذلك مظنة أن يستمطر رحمات الله تعالى وبركاته . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة » وما ذلك إلاّ بسبب إقبال العباد على الله تعالى ، راجين رحمته ، وقد قال عز من قائل (٢) : « وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين » وقال (٣) : « وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب ٌ أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون » .

إن الشيطان الرجيم يؤذيه أن تغمر المسلمين يوم عرفة شآبيب رحمة البرّ الرحيم ، التي يعتقد أن لاجتماع أكبر عددٍ من الصالحين في صعيدٍ واحد وتوجّههم إلى بارئهم سبباً مهمّاً في هطولها . إنّ علينا نحن المسلمين أن نستفيد

---

(١) سورة الانفال ٤٦ .

(٢) سورة غافر ٦٠ .

(٣) سورة البقرة ١٨٦ .

من هذه الدروس القرآنية العظيمة . وقد قال عزمن قائل (١) : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

٧ ــ قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إيّاك (٢) وفتح نون نستعين ، قرأ بها الجمهور ، وهي لغة الحجاز وهي الفُصْحى (٣) .

٨ ــ معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع . ومنه طريق معبّد إذا كان مذلّلاً بكثرة الوطء ، ومن ذلك قول طرفة :

تبارى عتاقاً ناجياتٍ وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبّد

يعني بالمور الطريق ، وبالمعبّد المذلّل الموطوء . ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالرّكوب في الحوائج معبّد (٤) ويقال : هو الذي عبّده الجرب أي ذلّله . قال شمر : قيل للبعير إذا هُنِيء بالقطران معبّد ، لأنّه يتذلّل لشهوته القطران وغيره فلا يمتنع (٥) . والعبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبّة والخضوع والخوف (٦) أي أنّ العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلّل . ومنه

(١) سورة آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٥/١ .
(٣) البحر المحيط ٢٣/١ وانظر تفسير ابن كثير ٢٥/١ .
(٤) تفسير الطبرى ٥٣/١ .
(٥) اللســان « عبد » .
(٦) تفسير ابن كثير ٢٥/١ .

ثوبٌ ذو عبدة ، إذا كان غاية في الصفاقة وقوة النّسج ، ولذلك لم تستعمل إلاّ في الخضوع لله تعالى ، لأنه مُولي أعظم النّعم ، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع (١) .

والعبادة مقامٌ عظيمٌ يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .. وقد سمّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعبده في أشرف مقاماته فقال(٢) : «**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب** » ؛ «**وأنّه لما قام عبد الله يدعوه**»(٣) «**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** »(٤) فسمّاه عبداً عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقاتٍ يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول (٥) : « **ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبّح بحمد ربّك وكن من السّاجدين، واعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين**»(٦) .

٩ ــ أطلق العبادة والاستعانة لتتناول كل معبودٍ به ، وكل مستعانٍ عليه . وكرّر إيّاك ليكون كلٌ من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين ، وكلٌ منهما مقصودة ، وللتنصيص على طلب العون منه ، بخلاف لو كان إيّاك نعبد ونستعين ، فإنّه كان يحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون ، أي وليطلب العون من غير أن يعيّن مـمّن يطلب (٧) ، قال تعالى : « **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** »

---

(١) الكشاف ٤٩/١ .

(٢) سورة الكهف ١ .

(٣) سورة الجن ١٩ .

(٤) سورة الاسراء ١ .

(٥) سورة الحجر ٩٧ــ٩٩ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢٦/١ .

(٧) البحر المحيط ٢٥/١ .

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

اهدنا الصراط المستقيم

أشارت الآية الكريمة السابقة : « إياك نعبد وإياك نستعين » إلى أمرين ، يعتبران قوام هذه الحياة ، العبادة والاستعانة . ومعروفٌ أن الاستعانة يمكن أن تتعلق بأمور دينية ، وبأمور دنيوية . فلننظر إلى الآية الكريمة التالية : «اهدنا الصراط المستقيم » كي نتبين الجانب الذي يتقدم الآخر في نظر الإسلام ، والذي ينبغي أن يعيه المسلم لله رب العالمين ، ويتمشى بموجبه . وواضحٌ أن الجانب الدينيّ هو الذي يتقدم ، وهذا أمرٌ طبيعيّ ، لأن الإنسان إنما خُلق من أجل عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وإذا كنا نقول إن مفهوم العبادة في الإسلام واسعٌ إلى أبعد الدرجات ، بحيث يشمل كل الأعمال الصالحة التي يريد بها المسلم وجه ربه الأعلى ، فلا يخفى أن أركان الإسلام الخمسة هي الأساس ، وهي قوام العبادة وعمادها . إنّ توفيق الله تعالى الإنسان للإيمان بها ، وعلى رأسها شهادة ألاّ إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وترجمة هذا الإيمان إلى عمل ، هو عين الرّبح والتوفيق والهداية . وإذا كانت النعمة الكبرى على الإنسانية في هدايتهم إلى دين الإسلام ،الذي رضيه الله تعالى لعباده، فإن التوفيق في استمرار الهداية غاية المنى ومنتهي الطلب خاصة إذا عرفنا أن المسلم لله رب العالمين ، مأمورٌ بأن يدعو الله تعالى بأن يجعل آخر عمره أحسنه ، فإن العبرة بالخواتيم . ومن هنا يتبين حاجة كل إنسان الملحة إلى عون الله تعالى المستمرّ الدائم . وإن رب العزة ، الذي يحبّ أن يدعوه عباده ، والذي وعد بالإجابة ، ليُرْشد عباده ، في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد إلى أفضل

الدعاء : « اهدنا الصراط المستقيم » . ومفهومٌ بداهةً أن المعنى في حق المسلم لله رب العالمين : زدنا هدًى إلى هدانا الذي أرشدتنا إليه يا ربنا ووفقنا للحصول عليه .

وهكذا يتبين أن المسلم لله رب العالمين ، ينبغي أن يسأل الله تعالى دائماً وأبداً ، الهداية والتوفيق ، في كل أموره ، وفي مقدمتها الهداية إلى استمرار السير في الصراط المستقيم ، الذي عماده وقوامه طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم . وقد قال عز من قائل (١) : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » وقال (٢) : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا » . وقال (٣) : « قُلْ إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » وقال (٤) : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا » وقال (٥) : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »

وبتدبرنا للآية الكريمة بالقياس لما سبقها نتبين التلاحم العجيب ، وكأنّ هذه الآية الكريمة : « اهدنا الصراط المستقيم » تعتبر تبييناً للآية الكريمة السابقة : « إياك نعبد وإياك نستعين » لأنها تبين أهم ميادين الاستعانة ، وهو الجانب الدينيّ ، أي جانب العبادة وليست الآية السابقة سوى عبادة واستعانة . كما أن

---

(١) سورة آل عمران ٣٢ .
(٢) سورة النساء ٥٩ .
(٣) سورة آل عمران ٣١ .
(٤) سورة النساء ٨٠ .
(٥) سورة الحشر .

هذه الآية الكريمة : « اهدنا الصراط المستقيم » تعيّن أهم الميادين التي ينبغي أن يلح العبد في دعائه الله تعالى بشأنه ، وهو ميدان الهداية للصراط المستقيم . وحينما يكون الإنسان سائراً بعون الله تعالى في الصراط المستقيم الذي بينّه القرآن الكريم وسنّه المصطفى صلى الله عليه وسلم والسّلف الصالح بعد ذلك . فإن هذا الإنسان يصح في حقه بإذن الله تعالى قوله عز من قائل (١) : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » .

وليس بخافٍ أن التعبير جاء في صيغة الجمع « اهدنا الصراط المستقيم » وليس في صيغة المفرد . وما قيل عن الروح الجماعية التي يحث الإسلام على تقويتها بشأن قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » يقال هنا .

وثمة بعض المسائل المتعلقة بالآية الكريمة ، وهي على النحو التالي :

١ ــ الأصل في هدى أن يصل إلى ثاني معموله باللام أو إلى (٢) كقوله تعالى (٣) : « إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . وقوله تعالى(٤) على لسان أهل الجنة : « الحمد لله الذي هدانا لهذا » . كما يتعدّى بإلى كقوله تعالى (٥) : « وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم » .

وقوله تعالى (٦) : « اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » وقوله تعالى (٧) :

---

(١) سورة النحل ٩٧ .
(٢) البحر المحيط ١/٢٥ .
(٣) سورة الاسراء ٩ .
(٤) سورة الاعراف ٤٣ .
(٥) سورة الشورى ٥٢ .
(٦) سورة النحل ١٢١ .
(٧) سورة الصافات ٢٣ .

« فاهدوهم إلى صراط الجحيم ». ثم يتّسع فيه فيعدّى إليه بنفسه ، ومنه (١) : « اهدنا الصراط المستقيم » (٢) فتضمن معنى ألهمنا أو وفّقنا أو ارزقنا أو أعطنا (٣) .

٢ ـ اهدنا الصراط المستقيمَ ، قراءة الجمهور بالصّاد ، وقريء السّراط ، وقريء بالزّاي (٤) والصراط لغةٌ في السراط ، والسراط السبيل الواضح (٥) قال الفرّاء : ونفرٌ من بلعنبر يصيّرون السّين إذا كانت مقدّمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صاداً . وذلك أن الطاء حرفٌ تضع فيه لسانك في حنكك فينطبق به الصوت . فقلبت السين صاداً ، صورتها صورة الطاء ، واستخفّوها ليكون المخرج واحداً ، كما استخفوا الإدغام . فمن ذلك قولهم : الصراط والسراط . قال : وهي بالصاد لغة قريش الأولين الّتي جاء بها الكتاب . قال : وعامة العرب تجعلها سيناً . وقيل : إنما قيل للطريق الواضح سراط لأنه كأنه يسترط المارّة ، لكثرة سلوكهم لاحِبَه (٦) وقال أبو جعفر الطوسيّ : أهل الحجاز يؤنّثون الصراط كالطريق والسبيل والزّقاق والسوق . وبنو تميم يذكرون هذا كله . ويجمع في الكثرة على سرط نحو كتاب وكتب . وفي القلّة قياسه أسرطه نحو حمار و أحمرة . هذا إذا كان الصراط مذكّراً . وأما إذا أنّث فقياسه أفعل نحو ذراع و أذرع وشمال وأشمل (٧) .

---

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) البحر المحيط ١/٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٦ .

(٥) اللسان « سرط » .

(٦) اللسان « سرط » والطريق اللاحب هو الطريق الواضح .

(٧) البحر المحيط ١/٢٥ .

وجاء في تفسير الطبري (١) : « قال أبو جعفر : اجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب. فمن ذلك قول جرير بن عطيّة الخَطَفَى (٢) :

أميــر المؤمنين عــلى صراطٍ   إذا اعوجّ الموارد مستقــيم

يريد على طريق الحقّ . . ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج . فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوجّ باعوجاجه . قال تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

---

(١) ٥٧/١ .

(٢) الخطفى بفتح الخاء والطاء : جد جرير على وزن جمزى .

صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

صراط الذين أنعمت عليهم

علاقة هذه الآية الكريمة : « **صراط الذين أنعمت عليهم** » علاقة وثيقة بسابقتها : « **اهدنا الصراط المستقيم** » فيكفي أن يعرف في هذا الشأن أن لفظة الصراط الثانية « صراط » مبدلةٌ من الأولى « الصراط » ويكفي أن يعرف أننا لا زلنا بصدد طلب العبد من الله تعالى استمرار العون بشأن الهداية إلى الصراط الذي وصف مرةً بأنه مستقيم ، ووصف مرةً أخرى بأنه صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم . وكأننا بصدد تكريرٍ صريحٍ للفظ الهداية ، وكأن التعبير : اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم . وواضحٌ أن هذا التكرار المفهوم ضمناً قوةٌ لطلب الهداية في المرة الأولى ، وقوةٌ لطلب العون الذي جاء من ذي قبل في القول : « وإياك نستعين » والذي تجلى أوضح ما يكون في طلب الهداية واستمرارها . قال تعالى : « **إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم** » .

النعمة لين العيش وخفضه . ولذلك قيل للجنوب النعامي (١) للين هبوبها . وسميت النعامة للين سهمها (٢) والفعل نعم يتعدّى في الأصل بنفسه . . يقال : أنعمته ، أي جعلته صاحب نعمة (٣) ولأنه ضُمّن معنى التفضّل عدّي بعلى ،

---

(١) بضم النون (القاموس) .

(٢) البحر المحيط ٢٦/١ وانظر القاموس « نعم » .

(٣) البحر المحيط ٢٦/١ .

الذي يفيد الاستعلاء (١) وفيما يتصل بإنعام الله تعالى على عباده يمكن أن يلاحظ ما يلي :

١ — لقد جاء الإنعام مطلقاً غير مقيّد « صراط الذين أنعمت عليهم » كي يشمل كل نعم الله تعالى التي لا يمكن أن يحصيها العبد وفي مقدمتها نعمة الإسلام لله رب العالمين . ولا شك أننا في هذا الدرس القرآني بصدد مظهر من مظاهر رحمة البرّ الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء .

٢ — إن الحديث هنا عن صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم ، إنما هو امتدادٌ للدرس القرآني في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » الذي يلقّن فيه المسلم طلب الهداية إلى الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم عليهم . وهذا تنبيهٌ لطيفٌ لكل مسلم لله رب العالمين ، بأن كل نعمة وصلت إليه ، أو يمكن أن تصل إليه ، وفي مقدمتها طلب الهداية إلى الطريق المستقيم ، والسير في ذلك الطريق الذي سار فيه المنعم عليه من عباد الله تعالى الصالحين ، لا يمكن أن تصل إلى الإنسان إلاّ بعون من الله تعالى وفضل . فعلى كل مسلم لله رب العالمين ألاّ يغفل عن طلب العون منه جلّ وعلا في كل أموره ، صغيرها وجليلها ، بما في ذلك طلبه منه جلّ وعلا أن يديم عليه أكبر النعم التي امتنّ الله تعالى بها عليه ، وهي نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم ، نعمة الإسلام لله رب العالمين . وإن واجب الإنسان وراء ذلك ، أن يترجم طلب الاستعانة ذلك ، وهو مظهرٌ من مظاهر العبادة ، إلى عبادةٍ خالصةٍ لله تعالى . وبذلك يقوم المسلم لله رب العالمين ، بما لقّنه في أول السورة ، من حمدٍ لله تعالى وثناء عليه بما هو أهله ، وبذلك يكون المسلم لله رب العالمين ، قد ترجم الحمد والثناء على الله تعالى إلى عمل صالح ، يعتبر توحيد الله تعالى أعلى قممه .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٦ .

يقول الطبري (١) : « وفي هذه الآية دليل واضح على أن طاعة الله جل ثناؤه ، لا ينالها المطيعون إلاّ بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها . أو لا يسمعونه يقول « صراط الذين أنعمت عليهم » فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنّه إنعام منه عليهم » .

٣ ـ لو أننا حاولنا أن نعرف المنعم عليهم في هذه الآية الكريمة : « صراط الذين أنعمت عليهم » فإننا في ضوء كون الآية الكريمة تتحدث في المقام الأول عن المنعم عليهم من البشر ، الذين يمشون في الأرض مطمئنين ، والذين يصح للإنسان أن يتخذ منهم أسوة حسنة ، ففي الإمكان أن نجد تبييناً لهؤلاء المنعم عليهم في هذه الآيات الكريمات من سورة النساء (٢) قال تعالى : « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيما . ولهديناهم صراطاً مستقيما . ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . وفيما يتصل بآيات سورة النساء هذه ، هي تشير إلى الصراط المستقيم الذي يهدي الله تعالى إليه الذين يفعلون ما يوعظون به بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله الكريم . إن القوم الذين تلك صفاتهم سيكونون يوم القيامة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومما قد يعتبر مؤيداً لوجهة النظر هذه ، من كون المراد بالمنعم عليهم تلك الفئات الممتازة من البشر ، والتي تبدأ بالنبيين وتنتهي بالصالحين ، هو أن هذه الآية الكريمة من سورة مريم (٣) ، قال تعالى : « اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذريّة آدم وممن حملنا

---

(١) تفسير الطبري ١/٥٩ .
(٢) الآيات ٦٦ـ٧٠ .
(٣) الآية ٥٨ .

مع نوح ، ومن ذريّة إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكيّا » تشير إلى الذين تحدثت عنهم الآيات قبل ذلك من المنعم عليهم من أنبياء الله تعالى ورسله ، وهم زكريا ويحيي وعيسى ابن مريم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس صلوات الله وسلامه عليهم ، إضافة إلي مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله تعالى وطهرها واصطفاها على نساء العالمين . وليس بخاف أن كل هؤلاء المنعم عليهم من البشر الذين يمشون على الأرض مطمئنين . وبالإضافة إلى هؤلاء المنعم عليهم الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة ، والذين أشارت إليهم الآية الكريمة ، فإن الآية الكريمة تجعل دائرة المنعم عليهم تتجاوز النبيين والمرسلين إلى عباد الله تعالى الصالحين ، من الذين حملوا مع نوحٍ عليه السلام في السفينة ،ومن ذريته إبراهيم وإسرائيل عليهما السلام ، ومن الذين هدى الله تعالى واصطفى ، ونستطيع أن نفهم أن من بين هؤلاء الصالحين صديقين وشهداء . قال تعالى : **« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم »** .

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ

بعد أن بينت هذه الآية الكريمة : « إهدنا الصراط المستقيم » أهم أنواع طلب العون من الله تعالى ، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم ، وفسّرت هذه الآية الكريمة التالية : « صراط الذين أنعمت عليهم » طبيعة الصراط المستقيم ، وهو كونه صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم ، وصفت هذه الآية الكريمة : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » الذين أنعم الله تعالى عليهم ، من كونهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين ، ونودّ أن نسجل ملاحظاتنا على هذه الآية الكريمة في هيئة نقاط :

١ ــ قال أبو جعفر : والقرّاء مجمعةٌ على قراءة غير بجرّ الرّاء منها »(١) ويقول ابن كثير (٢) : « قرأ الجمهور غير بالجرّ على النّعت » ونحن نرى أن لفظة غير جاءت مجردةً نعتاً أو صفة ، وإن كان ثمة رأيان للنحويين في هذه المسألة ، وقد أشار إليهما الزمخشريّ (٣) حيث يقول : « غير المغضوب عليهم بدلٌ من الذين أنعمت عليهم . على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال . أو صفة . على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ، وهي نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال » .

(١) تفسير الطبرى ١/٥٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٨ .

(٣) الكشاف ١/٥٥ .

٢ ـ الغضب تغيّر الطبع لمكروه (١) فإن قلت : ما معنى غضب الله قلت : هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده ، نعوذ بالله من غضبه ، ونسأله رضاه ورحمته (٢) والضلال والضلالة ضد الهدى والرشاد (٣) تقول : ضللت المسجد والدار ، إذا لم تعرف موضعهما . وضللت الدار والمسجد والطريق وكل شيء مقيم ثابت لا تهتدي له (٤) والضّلال : الهلاك والخفاء . ضلّ اللبن في الماء (٥) والضلال سلوك سبيل غير القصد . ضلّ عن الطريق سلك غير جادّتها . والضلال : الحيرة والتردّد (٦) والضلال في كلام العرب هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق . ومنه ضلّ اللبن في الماء ، أي غاب . ومنه : أئذا ضللنا في الأرض ، أي غبنا بالموت وصرنا ترابا (٧) .

٣ ـ يلاحظ التنويع في التعبير بشأن نفي صفة الغضب والضلال عن المنعم عليهم « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .فإذا كانت « لا » تفيد النّفي الواضح الصريح ، فإنها معطوفة على غير ، التي تتضمن معنى النفي .

٤ ـ إن السياق يتضمن أداة النفي « لا » ولا يستغنى عنها . فلا يقال غير المغضوب عليهم والضالين . ولكن : غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين لأننا بصدد صفتين غير مرغوب فيهما ، وهما صفة الغضب من الله على القوم

---

(١) البحر المحيط ٢٨/١ .
(٢) الكشاف ٥٦/١ .
(٣) اللسان « ضلل » .
(٤) اللسان « ضلل » .
(٥) البحر المحيط ٢٨/١ .
(٦) البحر المحيط ٢٨/١ .
(٧) تفسير القرطبى ١٣٠ .

وصفة الضلال من قبل القوم . فنحن من ناحية بصدد تفنن في التعبير ، هذا إلى أن الاستغناء عن أداة النفي « لا » قد يوهم عطف الضالين على الذين أنعم الله عليهم (١) .

٥ ـ لقد قدم السياق المغضوب عليهم على الضالين . ونعتقد أن السبب لا يكمن فقط في كون الجمال الصوتي يقتضي ذلك ، لأن لفظة الضالين التي ختمت بها الآية الكريمة تتمشى صوتياً مع الكلمات المماثلة لها موضعاً في الآيات السابقة (٢) إنما هناك أكثر من سبب معنوي وراء هذا النوع المعيّن من نظم الكلام . وأوّل ما يلاحظ في هذا الصدد هو أن لفظة الإنعام ، التي جاء ذكرها في الآية الكريمة « صراط الذين أنعمت عليهم » والتي تعني رضا الله تعالى ، تقابل معنوياً لفظة الغضب فلو أننا أردنا أن نعبّر عن معنيين متقابلين يعتبر الإنعام أحدهما لقلنا على سبيل المثال : منعم عليهم ومغضوب عليهم . فحينما تجيء صفتان لفريقين من الناس يقفان على طرف النقيض من صفات المنعم عليهم ، وتكون إحداهما صفة الغضب ، فمن البديهي أن تقترب هذه الصفة من التي تقابلها . ومن الطبيعيّ بناءً على ذلك أن تتقدم صفة الغضب على صفة الضلال ، خاصة ونحن بشأن الصفتين المرغوب عنهما ، وأمام أولى الصفتين الأشد قوة ، وذلك قادر على إظهار كل من المعنيين المتقابلين ، الإنعام والغضب على التوالي ، شديدي البياض والسواد . وهذا ذاته قوة للرأي الذي يعبر عنه القول : وبضدّها تتبين الأشياء . قال تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يقول أبو حيان (٣) : وقدّم الغضب على الضلال وإن كان الغضب من نتيجة الضلال ، ضل عن

---

(١) انظر هنا مثلا البحر المحيط ١/٢٩ .

(٢) انظر هنا البحر المحيط ١/٣٠ .

(٣) البحر المحيط ١/٣٠ .

الحق فغضب عليه ، لمجاورة الإنعام ومناسبة ذكره قرينة ، لأن الإنعام يقابل بالانتقام ولا يقابل الضلال الإنعام . فالإنعام إيصال الخير إلى المنعم عليه . والإنتقام إيصال الشر إلى المغضوب عليه فبينهما تطابق معنويّ . وفيه أيضاً تناسب التسجيع » .

٦ — لقد عرفنا معنى كل من الغضب والضلال لغوياً . ونستطيع للوهلة الأولى أن نذهب إلى كون كل من هاتين الصفتين ، يصح أن تنطبق على كل الذين يستحقون غضب الله تعالى ، وعلى كل الذين يستحقون أن يوصفوا بالضلال . ولكن ثمة حديث للمصطفى صلى الله عليه وسلم مفاده أن المغضوب عليهم هم اليهود ، وأن الضالين هم النصارى . ولا يخفى أن اليهود يتقدمون النصارى زمناً ، كما يتقدمونهم عداوة ومن هنا يبدو السبب الآخر في تقديم صفة الغضب ، بسبب تقدم أصحابها زمناً وعداوة (١) عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم قال : اليهود . قلت : الضالين . قال : النصارى (٢) وعن عديّ بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المغضوب عليهم اليهود (٣) وعن عديّ بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا الضالين قال : النصارى (٤)

ويقول أبو حيّان(٥) : « والمراد بالإنعام الإنعام الدّينيّ . والمغضوب عليهم والضّالّين عامٌّ في كلّ من غضب عليه وضلّ . وقيل : المغضوب عليهم : اليهود . والضّالّون : النّصارى . قاله ابن مسعود وابن عبّاس ومجاهد

(١) انظر هنا البحر المحيط ١/٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٠ وانظر صفحة ٢٩ .
(٣) تفسير الطبرى ١/٦١ .
(٤) تفسير الطبرى ١/٦٤ .
(٥) البحر المحيط ١/٣٠ .

والسّدّي وابن زيد . وروي هذا عن عديّ بن حاتم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وإذا صحّ هذا وجب المصير إليه وجاء في تفسير ابن كثير (١) : وقال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسّرين في هذا اختلافاً » .

وقد اعتمد المفسّرون في هذا الرّأي على حديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الذي ذكرنا وعلى العديد من الآيات القرآنيّة التي وصفت اليهود بأنّهم مغضوبٌ عليهم ، ووصفت النّصارى بأنّهم ضالّون . ومن ذلك قوله تعالى في بني إسرائيل(٢) : « بئسما اشتروا به أنفُسَهُمْ أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ على غضب ، وللكافرين عذابٌ مهين » . وقوله تعالى(٣) : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السّبيل » وقوله تعالى(٤) :

« وباءوا بغضبٍ من الله » وقوله تعالى(٥) : « غضب الله عليهم » وقوله تعالى(٦) : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحقّ ولا تتّبعوا أهواء قومٍ قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السّبيل » .

وقد تبيّن للعلماء أنّ اليهود وصفوا بأنّهم مغضوب عليهم لأنّ الحقّ قد وصلهم فعرفوه ومع ذلك هم جحدوه . وأنّ النّصارى وصفوا بأنّهم

(١) تفسير ابن كثير ٣٠/١ .
(٢) سورة البقرة ٩٠ .
(٣) سورة المائدة ٦٠ .
(٤) سورة آل عمران ١١٢ .
(٥) سورة المجادلة ١٤ .
(٦) سورة المائدة ٧٧ .

ضالّون لأنّهم أخطأوا الطّريق الصّحيح . أمّا المؤمنون المتّقون المنعم عليهم ، فهم الذين عرفوا الحقّ فاتّبعوه وعملوا به . يقول ابن كثير(١) : « فإنّ طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به . واليهود فقدوا العمل . والنّصارى فقدوا العلم ولهذا كان الغضب لليهود والضّلال للنّصارى . لأنّ من علم وترك استحقّ الغضب ، بخلاف من لم يعلم . والنّصارى لمّا كانوا قاصدين شيئاً لكنّهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنّهم لم يأتوا الأمر من بابه ، وهو اتّباع الحقّ وضلّوا . وكلٌ من اليهود والنصارى ضالٌ مغضوبٌ عليه . لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم : « من لعنه الله وغضب عليه » . وأخصّ أوصاف النّصارى الضّلال ، كما قال تعالى عنهم : «قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السّبيل» . وبهذا جاءت الأحاديث والآثار » ويقول العلاّمة أبو الحسن النّدوي في هذا الأمر (١) : « لا يتذوق كلمة المغضوب عليهم ، ولا يؤمن بصحّتها وانطباقها على اليهود إلاّ من درس تاريخهم وعرف سيرتهم والدّور الهدّام الذي لعبوه في تاريخ الإنسانيّة والمدنيّة ، وما يحملونه من حقد دفين للأجيال البشريّة عامة ، ومن حبٍّ الاستعلاء بالاستئثار . وكذلك لا يفهم الإنسان سرّ اختصاص النّصارى بالضّلال ووصفهم بالضّالين إلاّ إذا قرأ تاريخ المسيحيّة ، وما تعرّضت له من المسخ والتّحريف ، والغموض والالتباس منذ نشأتها وفي عهدها الباكر ، والدّور الذي لعبه بولس في تطوير هذه الدّيانة وتلوينها بلونٍ خاصّ ، والدّور الذي لعبته الكنيسة في تلوين العقيدة النّصرانيّة وتفسيرها ، وخضوع العالم المسيحيّ لجميع هذه العوامل والمؤثّرات » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٩/١ .

(٢) الاركان الاربعة ص ٤١ هامش رقم ٢ وهامش رقم ٣ .

٧ ـ « ما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم » . وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى : غير المغضوب عليهم . وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة ، كما قال تعالى : ألم تر إلى الذين تولّوْا قوماً غضب الله عليهم(١) قال تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين » .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٠ .


آمین

آمين

يستحبّ لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، مثل يس ، ويقال أمين بالقصر أيضاً(١) ومعنى آمين عند أهل العلم : اللّهمّ استجب لنا ، وضع موضع الدّعاء(٢) عن ابن عبّاس قال : سألت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما معنى آمين ؟ قال : ربّ افعل(٣) وآمين صوتٌ سمّى به الفعل الذي هو استجب . كما أنّ رويد وحيّهل وهلمّ أصوات ، سمّيت بها الأفعال التي هي : أمهل ، وأسرع ، وأقبل(٤) وعن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لقّنني جبريل عليه السّلام آمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب وقال : إنّه كالختم على الكتاب(٥) وليس من القرآن بدليل أنّه لم يثبت في المصاحف(٦).

والدّليل على استحباب التّأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والتّرمذيّ عن وائل بن حجر قال : سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قرأ : غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . فقال : آمين ، مدّ بها صوته . ولأبي داود رفع بها صوته . وقال التّرمذيّ : هذا حديث حسن ، وروي عن عليّ وابن مسعود وغيرهم(٧)

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣١ .
(٢) تفسير القرطبي ص ١١١ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١١١ والكشاف ١/٥٨ وتفسير ابن كثير ١/٣١ .
(٤) الكشاف ١/٥٨ .
(٥) الكشاف ١/٥٩ .
(٦) الكشاف ١/٥٩ .
(٧) لعل الصحيح وغيرهما .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا تلا غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين قال : آمين ، حتّى يسمع من يليه من الصّفّ الأوّل . رواه أبو داود وابن ماجة وزاد فيه: فيرتجّ بها المسجد والدّارقطني وقال : هذا إسنادٌ حسن (١) وأضاف ابن كثير(٢) : « قال أصحابنا وغيرهم : ويستحبّ ذلك لمن هوخارج الصّلاة . ويتأكّد في حقّ المصلّي وسواءٌ كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال ، لما جاء في الصحيحين(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه . ولمسلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إذا قال أحدكم في الصّلاة آمين ، والملائكة في السّماء آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى ، غفر له ما تقدّم من ذنبه » . وقد علّق القرطبي في تفسيره(٤) على هذا الحديث بعد أن ذكره : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم . فترتيب المغفرة للذّنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث .

الأولى : تأمين الإمام .

الثّانية : تأمين من خلفه .

الثّالثة : تأمين الملائكة .

الرّابعة : موافقة التّأمين . قيل في الإجابة ، وقيل في الزّمن وقيل في الصّفة من إخلاص الدّعاء لقوله عليه السّلام : ادعوا الله وأنتم موقنون

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣١/١ .
(٣) جاء الحديث فى صحيح البخارى ٦/١ ٢ .
(٤) ص ١١٠ .

بالإجابة . واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ قال تعالى : بسم الله الرحمن الرّحيم : الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرّحيم . مالك يوم الدّين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين . صدق الله العظيم . وصلي الله علي سيدنا محمد النبي الأمي وعلي آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . والحمد لله ربّ العالمين .



الخاتمة

الخـــاتمـــة

أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة الفاتحة في الصّفحات السّابقة أشرنا في التّوطئة إلى بعض المسائل ذوات العلاقة بالسّورة الكريمة منها الإشارة إلى آراء العلماء تجاه السّورة الكريمة مكيّة أو مدنية . وقد أشرنا إلى أنّنا نرجّح رأي جمهور العلماء بكون السّورة الكريمة من المكّيّ من القرآن الذي نزل قبل الهجرة . كما أشرنا إلى اتّفاق العلماء بشأن عدد آيات السّورة الكريمة وكونها سبعاً ، واختلافهم حول الآيات الّتي تكون بها السّورة الكريمة سبع آيات . فالذين اعتبروا البسملة آية من الفاتحة ، اعتبروا قوله تعالى : صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين ، آية واحدة . والّذين لم يعتبروا البسملة آية ، اعتبروا صراط الّذين أنعمت عليهم آيةً قائمةً بذاتها وما بعدها آية كذلك . وقد أمكن لنا إحصاء تسعة عشر اسماً للسّورة الكريمة ، حاولنا أن نبيّن معاني ما يحتاج إلى تبيين أو زيادة إيضاح . كما أنّها تتضمّن خمسة من أسماء الله تعالى الحسنى هي : الله . الرّبّ . الرّحمن . الرّحيم . المالك أو الملك . وقد أشرنا عرضاً إلى آراء العلماء بشأن قراءة الفاتحة في الصّلاة ، وبشأن الجهر بالبسملة أو الإسرار بها ، وبشأن اعتبارها آية من الفاتحة وسواها وعدم اعتبارها .

أمّا الدّراسة المتأمّلة للسّورة الكريمة فقد قامت على دعامتين واضحتين .

الأولى مظاهر الإعجاز البياني في السّورة الكريمة . وقد كانت العناية

كبيرةً بمحاولة تبيين أنواع الرّباط بين أجزاء الآية الكريمة الواحدة ، وأنواع الرّباط بين آيات السّورة الكريمة كلّها .

الثانيــة استخلاص الدّروس الّتي يمكن استفادتّها من هذه السّورة الكريمة الّتي يعتبرها العلماء سرّ القرآن . وقد كانت عنايتنا بهذه النّاحية كبيرةً انطلاقاً من قوله تعالى عن هذا القرآن الكريم(١) : « إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً . وأنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » .

وبسبب علاقة السّورة الكريمة بمجموعةٍ من الأحكام ، كان اعتمادنا كبيراً على تفسير القرطبيّ الجامع لأحكام القرآن .

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يتقبّل منّا صالح الأعمال . وأن يعفو عمّا بدر منّا من تقصير . وألاّ يحرمنا من أجر ، إنّه سميع مجيب . وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ الأمّيّ الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) سورة الاسراء ٩ ، ١٠ .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

فهرس المصادر والمراجع

فهرست المصادر و المراجع

القرآن الكريم .

ابن كثير : عماد الدّين أبو الفدا . اسماعيل بن كثير . تفسير ابن كثير ، بيروت ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٩ م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرّم . لسان العرب . بيروت . ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م .

ابن هشام : السّيرة النّبويّة . تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد . دار الفكر .

أبو حيّان : محمّد بن يوسف ، بن علي ، بن يوسف . البحر المحيط . بيروت . بدون تاريخ .

أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . دار الكتب .

البخاري : كتاب الصّحيح . كتاب الشّعب ١٣٧٨ هـ .

البنّا : حسن ، رسالتان في التّفسير وسورة الفاتحة . الطبعة الأولى . بيروت ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

الجلالين : جلال الدّين السّيوطيّ وجلال الدّين المحلّيّ ، تفسير الجلالين .

الحملاوي : أحمد . شذا العرف في فنّ الصّرف . الطّبعة السادسة عشرة ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٥ م مصطفى البابي الحلبيّ .

الزّجّاج : أبو إسحاق إبراهيم بن السّريّ الزّجّاج. تفسير أسماء الله الحسني تحقيق أحمد يوسف الدّقاق. بيروت ١٣٩٥ هـ–١٩٧٥ م .

الزّمخشريّ : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. الكشّاف. طبع مصطفى البابي الحلبيّ. ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م.

الطبريّ : أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ. تفسير الطّبريّ، جامع البيان في أحكام القرآن. الطّبعة الأولى. بولاق. ١٣٢٩ هـ.

الفيروزابادي : القاموس المحيط.

القرطبيّ : أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ. تفسير القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن. كتاب الشّعب. بمصر.

المودودي : أبو الأعلى. تفهيم القرآن. الجزء الأوّل. تعريب أحمد إدريس. القاهرة. الطّبعة الأولى ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.

النّدوى : أبو الحسن علي الحسنيّ، الأركان الأربعة، الطبعة الثالثة، بيروت. ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م.